روايات مصرية للجيب

حالات خاصة

مذكرات طبيب نفسي ،
يصارع للحفاظ على حياته ،
والحفاظ على سلامة عقله .

حالة الحاسَّة السَّادسة

Looloo

1

www.dvd4arab.com

مقـــدمة

مـن منا لـم يحتجْ إلى شخص يتكلم إليه بحرية فينصت لـه باهتمام؟ من منا لم يحتج إلى أخ ليشاركه همومه ومشكلاته ؟ من منا لم يحتج إلى صديق مخلص يسديه النصيحة ؟ من منا لم يحتج إلى طبيب نفسى ؟

أعرفكم بنفسى .. د.(ياسين العوضى) .. استشارى الطب النفسى وعضو الاتحاد العالمى للصحة النفسية .

الحالة الاجتماعية : متزوج .

لى صديقان عزيزان .. أحدهما طبيب بيطرى ، والآخر طبيب أطفال ، ولى أصدقاء آخرون من مصر ، وأصدقاء أيضًا من أنحاء دول العالم.

ستلتقون معى فى كل عدد مع حالة نفسية كنت أعالجها وكانت لى جلسات معها .. ستعتادون على هذه الجلسات العلاجية .. وربما تدمنونها .

بالنسبة لاسم السلسلة فأنا أرى أنه مناسب؛ لأنى أتحدث عن حالات خاصة بالفعل .. ولأن معظم هذه الحالات يبدءون حديثهم بجملة: « أنا حالة خاصة جداً يا دكتور » وكأنهم جاءوا ليدهشونى فقط .. وليس أملا فى الشفاء .

بالنسبة لأسماء الروايات .. سأطلق على الروايات أسماء تصف الحالة مثل: (حالة هيدروفوبيا Hydrophobia) .. أو أتركها باسم الحالة مثل (حالة الأستاذ شكرى) أو الوظيفة ، مثل

(حالة طبيب شرعى) .. أو أطلق اسمًا على الحالة بجملة اعتادت أن تقولها فلا تندهش إن وجدت (حالة كيف تحركت المومياء ؟) عنوانًا لرواية .. وإذا اعتبرنا صاحب العمارة حالة؛ فإنه (حالة كلهم أعدائى) .. وهكذا .

سنتعرف بإذن الله على الأمراض النفسية .. سنتكلم عن الأعراض العضوية والأعراض النفسية .. ونتناقش فى طرق العلاج .

سنتحدث عن الهلاوس .. هل تسمع هذا الصوت المخيف ؟ هل ترى هذه الفتاة العرجاء ؟ هل تشم هذه الرائحة الذكية ؟ هل تجلس بجوارى الآن ؟

سنحاول تفسير أحلامنا بوجهة نظر نفسية .. سنجيب سؤال: لماذا حلمنا بذلك ؟

سنحلل العقد النفسية .. من هو (أوديب) ؟ هل سمعت عن (ألكترا) ؟ .. سنسألك عن الفوبيا (Phobia) ؟ هل قرأت عن البارانويا (Paranoia) ؟ هل فهمت الشيزوفرنيا (Schizophrenia) ؟ هل تعرف شيئًا عن الهستيريا (Hysteria) ؟

هل تعانى من الوسواس القهرى ؟.. هل تسير أثناء نومك ؟

سنتأمل الحيل الدفاعية .. سنعرف الكثير عن الصراعات النفسية .. سنتساءل فى حيرة : من أنت ؟ هل (أنت) كما ترى نفسك ؟ أم (أنت) كما تريد أن تكون ؟ أم (أنت) كما يراك الآخرون ؟ أم (أنت) شخص آخر ؟

ستكتشف أنك لست وحيدًا .. هناك (الأنا) و (الهو) و (الأنا الأعلى) .

ستعرف كيف تتعامل مع الآخرين ؟ كيف تفهم الآخرين ؟.. وقبل كل ذلك .. كيف تفهم نفسك ؟

سنتطرق لمعظم فروع علم النفس الكثيرة ـ التى تزيد يومًا بعد يوم ـ كعلم النفس الاجتماعى والحربى والصناعى والإدارى وغيرها .

أما بالنسبة لعلم نفس الخوارق (الباراسيكولوجى) Parapsychology فلى معه صولات وجولات حيث يتمتع بإثارة وجاذبية تجعلانى أتورط فيه متعمدًا بين الحين والآخر .

لو سلمنا بنظرية أن العقل مثل سلة التفاح .. يجب أن نرمى الفاسد منها ونحافظ على السليم فيها .. فلا تعجب عندما ترى على الغلاف الخارجى جمل مثل (حالات خاصة . مغامرات طبيب نفسى بين الشعور واللاشعور وسلة التفاح) .

أيكفى ما قلته كمقدمة ؟ فلنبدأ القراءة إذن .. ولكن مهلاً ..

يجب أن تعلموا من البداية أننى لن أستخدم الأسماء الحقيقية للمرضى لأنه لا يجب أن أصرح باسم الحالة .. إن الطبيب النفسى يجب أن يحافظ على أسرار مرضاه وعلى شرف مهنته كأى طبيب آخر .. وكأى صاحب مهنة أخرى .

د. ياسين العوضى

1 ـ إنقـــــاذ ..

اليوم: الخميس ٣ يونيو الساعة العاشرة مساء

أقود سيارتى عائدًا إلى البيت بعد يوم شاق فى العيادة .. ظهرى يئن بشدة حتى أكاد أسمعه .. رأسى مزدحمة بمئات الخواطر والأفكار .. لو أنك جربت أن تكون طبيبًا نفسيًا لمدة سبع ساعات متصلة سوف تشعر هذا الشعور .

هذه نهاية يوم شاق .. وما أكثر الأيام الشاقة !

فجأة ..

لمحت ذلك الازدحام الشديد فى الطريق والذى منعنى من المضى بسيارتى .. عدد كبير من الناس وعدد كبير جداً من السيارات !!

لولا أننى أعلم جيدًا أنه لا توجد قطارات تمر من هنا لاعتقدت أنه حادث تصادم قطارين .. ترجلت من سيارتى واتجهت إلى نقطة البداية .. أو مركز الزحام بعنى أدق .. وهناك وجدت الكثير والكثير من الوجوه المذعورة الناظرة لأعلى وإلى جوارها سيارات الشرطة والإسعاف والمطافئ ..كان يوجد جو عام من التوتر والقلق والترقب .. وكان لابد أن أسأل .

ـ « هناك شخص يريد الانتحار » .

قالها لى أحد الواقفين فنظرت لأعلى .. إلى النقطة التى ينظر إليها الجميع .

حقًا ! هناك شخص على استعداد تام للانتحار .. يقف بهدوء على سور سطح البناية وينظر إلى الجميع بالأسفل أو هذا ما اعتقده

من اتجاه رأسه .. ترى ما هى دوافعه لارتكاب هذه الخطيئة ؟ أى أحمق هو ؟! سألت نفس الرجل من جديد :

ـ من هو ؟ هل تعرفونه ؟

ـ نعم .. إنه (عزت البدرى) ويعمل مهندس بترول .

ـ ولماذا يريد الانتحار ؟

ـ لا أحد يعلم .

ـ هل تحدث أحد إليه ؟

ـ نعم .

ـ من ؟

ـ رجال الشرطة تحدثوا إليه .. رجال الإسعاف أيضًا .. حتى المحافظ نفسه تحدث إليه هاتفيًا لمدة نصف ساعة .

وهل توصلوا للسبب الذى يدفعه للانتحار ؟

ـ لا .

ـ أتعنى أنه لم يذكر أى مطالب ؟! فمعظم المهددين بالانتحار لهم مطالبهم .. بل إنهم لا يفكرون بالانتحار بقدر تفكيرهم فى تنفيذ مطالبهم .

ـ أفهم وجهة نظرك ولكنه للأسف لم يذكر أى مطالب .

ـ وماذا عن زوجته وأولاده ؟

ـ لا .. لم يفكروا فى الانتحار .

كتمت ضحكتى .. كيف فهم سؤالى بهذه الطريقة ؟! قلت له :

ـ لم أقصد ذلك .. بل أسأل : هل تحدثت زوجته وأولاده إليه ؟ فربما كان السبب مشكلة أسرية .

ـ تحدثوا جميعًا إليه .. زوجته وأولاده .. أبوه وأمه .. أقاربه جميعهم تحدثوا إليه .. حتى ابن عم زوج خالته تحدث إليه .

ـ إلى هذه الدرجة ؟

ـ نعم .. ولم يستطع أحد التوصل إلى شيء .

ـ هل ذكر أى فرد من المقربين إليه أنه كان يعانى من المشاكل فى الفترة الأخيرة .. أعنى مشاكل نفسية .. جسدية .. اقتصادية .. اجتمـ . .

قاطعنى قائلاً :

ـ لا .. لا .. لم يكن يعانى من أى شيء .

تعجبت من كون ذلك الرجل يعرف كل شيء عنه .. فسألته :

ـ كيف تكون متأكدًا لهذه الدرجة ؟

ـ أنا (ياسر) جاره .. أراه كل يوم .. لذا أؤكد لم أنه كان من أسعد رجال الأرض .

يا للغموض ! منتحر بدون سبب ! إن هذا الأمر أثار اهتمامى .. سألته :

منذ متى ؟

ـ ماذا ؟

ـ منذ متى وهو يقف هكذا ؟

منذ ساعة تقريبًا .

ـ ساعة ؟! أعتقد أنه لا ينوى الانتحار .

ـ ماذا ؟

ـ لو أنه يريد الانتحار ما الذى أخره كل هذا الوقت ؟

ـ لا أعلم .. ولكنى متأكد أنه يريد الانتحار وسوف يفعلها فى أى لحظة .

ـ حسنًا .. يمكننى معرفة أينا على صواب .

وتركته وقد نشط بداخلى الطبيب النفسى من جديد وكأنه عائد من إجازة طويلة لم ير خلالها أى مريض .

اخترقت الزحام محاولاً الوصول إلى ذلك الأحمق بأقصى سرعة قبل أن يفعلها وأشعر بتأنيب الضمير .. سأحاول إنقاذه .

كم الساعة الآن ؟ نظرت فى ساعتى .. إنها العاشرة والربع .. حسنًا ، ليكن هذا آخر شيء أفعله قبل نومى هذه الليلة .. إن شاء الله .

سأحاول معرفة الأسباب منه .. لابد أن هناك سببًا بالتأكيد .. سأحاول منعه من الانتحار سأقنعه بالعدول عن الفكرة .. أهم شيء أن أصل قبل فوات الأوان .

★ ★ ★

(نفس اليوم) : الخميس ٣ يونيو الساعة العاشرة والنصف مساء

هبطت الدرج وأنا أصطحب المهندس عزت البدرى .. استقبله أهله بالأحضان وبعضهم استقبلوه بنظرات لوم على ما فعله .. ليتهم يحمدون الله أنه لم ينتحر ولينسوا إقدامه على ذلك .. ولكنى أعتقد أنهم لن ينسوا هذه الليلة أبدًا .

استقبلنى (ياسر) جاره بالأسفل ، وقال :

ـ ما الذى فعلته بالضبط ؟ لقد تحدثت إليه لمدة عشر دقائق .. ما الذى قلته له خلالها ؟ أخبرنى كيف فعلتها .

ـ ألم أقل لك إنه لا ينوى الانتحار ؟

ضحك ، ثم قال :

نعم .. أتذكر ذلك جيدًا وأنا كنت أعارضك بشدة .. كان يمكنك أن تربح كثيرًا لو راهنتنى على ذلك .

ـ مال ؟! يكفينى ما تلقيته الليلة من كلمات شكر وما سمعته من دعوات .. هناك أشياء أغلى بكثير من المال ويكفينى أنى سأنام ليلتى سعيدًا بعد إنقاذى حياة فرد .

ـ ولكنى ما زلت مصممًا أن أعرف كيف فعلتها .. ماهى مهنتك بالضبط ؟

أخرجت ما فى جيبى من كروت ووزعتها على من حولى قائلاً بابتسامة هادئة :

ـ أعرفكم بنفسى .. د . (ياسين العوضى) .. طبيب نفسى .. فى خدمتكم دائمًا .

هممت بالانصراف لولا أن جذبنى (ياسر) من ذراعى ، وهو يصيح قائلاً :

ـ طبيب نفسى .. هذا هو التفسير .. ولكن .. ماذا نفعل لو أقدم على ذلك مرة أخرى وأنت لم تكـ ..

قاطعته قائلاً :

ـ تعنى .. لو أنه أقدم على ذلك مرة أخرى ولم أكن موجودًا حينها ؟

ربتُّ على كتفه ، وقلت بكل ثقة :

ـ تأكد أنه لن يفعلها مرة أخرى .. إن ما قلته له اليوم يكفيه مدى الحياة .. ثق أنه لن يفكر فى الانتحار أبدًا .

★ ★ ★

الخبر كان بعنوان انتحار مهندس بترول .. قالت لى بهدوء :

ـ إنه الرجل الذى منعته من الانتحار .

نعم .. إنه هو .. لقد تذكرته الآن ..

إنه المهندس (عزت البدرى) .

★ ★ ★

2 ـ مشكلتى فى كلمتين ..

اليوم : السبت ٥ يونيو الساعة السابعة مساء
المكان : عيادتى .

دق الممرض الباب بمجرد خروج الآنسة (كوثر) .. نظرت فى ساعتى وجدتها السابعة .. هذا يعنى أننى لم أبرح مكانى هذا منذ أربع ساعات مضت .. حتى أصبحت أشعر بالمقعد وكأنه صار جزءًا منى .

سألت الممرض عند دخوله الحجرة :

ـ كم عدد الحالات المنتظرة بالخارج ؟

ـ اثنتان .

ـ من هما ؟

ـ الآنسة (رنا) .

آه ... إنها تلك الفتاة التى تعانى من خرس هستيرى نتيجة لـ .. قد أحكى لكم حالتها بالتفصيل فيما بعد .

ـ وما هى الحالة الأخرى ؟

ـ السيدة (ماجدة) .. لقد اتصل زوجها بالأمس وحجز لها .

ـ حسنًا .. فلتدخل من جاء دورها .

ـ إنها السيدة (ماجدة) .

قالها وانصرف وما هى إلا ثوان حتى كانت السيدة (ماجدة) تدلف إلى الحجرة .. هى وزوجها .. نهضت من مكانى واتجهت إليهما .

كانت هذه هى المرة الأولى التى أرى فيها السيدة (ماجدة) وزوجها الأستاذ (وليد) .

بعد التعارف سألت :

ـ أيكم الـ ... ؟

أشار الزوج إليها قائلاً بحسرة :

ـ إنها هى .. إنها مسكينة يا دكتور .. إن مشكلتها صعبة جداً .. مشكلة لن تجد أحدًا غيرها يعانى منها .. وأتعشم أن أجد لها حلا عندك .

مشكلتها لن أجد أحدًا غيرها يعانى منها !! هناك أناس يعشقون المبالغة .. قلت له :

ـ حسنًا .. ادع الله أن يوفقنى إلى ذلك .. والآن بإمكانك انتظارها بالخارج .

أبدى اعتراضه على الفور ، ولكنى أقنعته بشتى الطرق أن الجلسة دائمًا تتكون من المريض والطبيب المعالج فقط .. فى النهاية وافق على مضض ، ثم خرج بعد أن ابتسم لزوجته ابتسامة ودودة حانية ، وقال بكل رومانسية امتلكها :

ـ لو احتجت شيئًا .. أنا بالخارج .

ثم ألقى عليها نظرة أخيرة .. وكأنها نظرة وداع ، وبعد خروجه التفت إليها و ...

ـ تفضلى بالجلوس .

جلست على المقعد أمام المكتب ، فأشرت إلى الشيزلونج قائلاً :

ـ لا .. ليس هنا .. إن الشيزلونج أفضل .

فنهضت واتجهت إلى الشيزلونج وجلست عليه فتابعت حديثى قائلاً :

ـ استرخى تمامًا .

نفذت على الفور ، فتابعت قائلاً :

ـ إن الاسترخاء يساعدك على صفاء ذهنك وتركيز أفكارك وهذا ما أنشده .

عدت أنا إلى مقعدى المعتاد وأدرت المسجل الصغير لتسجيل الحوار .

أحيانًا أستخدم المسجل وأحيانًا أستخدم النوتة الصغيرة .. وأحيانًا أخرى أستخدم الاثنين معًا لتسجيل الحوار فى شرائط وتسجيل ملاحظاتى فى النوتة ، وفى مرات نادرة عندما لا يتوافر أى منهما أعتمد على ذاكرتى فقط .

بالنسبة للسيدة (ماجدة) .. أول ما يمكن ملاحظته فيها هو اتشاحها بالسواد من قمة رأسها حتى أخمص قدمها .. سمعت أنهم لقبوا (أنوشكا) يومًا ما بالفراشة السوداء .. حسنًا .. كانت أمامى فراشة سوداء أخرى !

أما بالنسبة لوصفها حتى تستطيع أن ترسم لها صورة فى خيالك .. فهذه مسألة عسيرة نوعًا ما .. وأرى أنها غير ضرورية .. على أى حال .. هى سيدة مصرية مثل أى سيدة أخرى تراها هنا أو هناك .. لنقل إنها فى الثلاثين من عمرها .. متوسطة الجمال أهذا

يكفى ؟.. أعتقد ذلك .. ولنترك الباقى لخيالك .

كان أول سؤال تبادر إلى ذهنى بعد أن كتبت بياناتها :

ـ هل اللون الأسود هو اللون المفضل لديك ؟

فأجابت منزعجة :

ـ يادكتور .. أنا أرتديه لأن والدىّ متوفيين .. وتوفى عمى أيضًا منذ أسبوع تقريبًا .

ـ حسنًا .. ماهو لونك المفضل ؟

أجابت ببساطة وبتلقائية شديدة :

ـ الأسود .. لماذا تسأل ؟

إجابتها مستفزة وسؤالها أكثر استفزازًا .. لا أعلم هل تتعمد هذه السيدة ذلك أم ..؟

سألتها بفضول :

ـ ولماذا الأسود ؟

أجابت بكل الحماس الذى لديها :

ـ إن اللون الأسود لون مهم جداً . . فى حياتنا .. كل شىء به لون أسود .. حتى البشر أنفسهم .. أنا .. أنت .. الشعر أسود .. العيون .. حتى فى أفلامنا .. اهتموا باللون الأسود أكثر من أى لون آخر .. عندك مثلاً .. (الشموع السوداء) و (النظارة السوداء) و (الحقيبة السوداء) و (الـ ...) .

قاطعتها قائلاً :

ـ هناك أيضًا (الوردة البيضاء) لعبد الوهاب .

ـ فيلم واحد .. أو حتى اثنين .. ربما .. أما اللون الأسود ، فإنه مكتسح .. إن اللون الأسود ليس مجرد لون عادى .. إنه أهم لون فى الوجود .

بدا لى أننا سنقضى الجلسة كلها فى قصائد غزل فى اللون الأسود لتتحول الجلسة بأكملها إلى جلسة ....!

فوجئت بها تقول :

ـ هل تعلم أننا لو جمعنا ألوان الطيف يخرج لنا اللون الأسود .

ـ تقصدين الأبيض .

ـ لا .. الأسود يا دكتور .. أنا متأكدة .

إنها تنظر إلى اللون الأسود كفلسفة حياة .. لا أستبعد أن تحدثنى عن الأشعة تحت السوداء والأشعة فوق السوداوية والبحر الأسود المتوسط .. والبيت الأسود فى أمريكا !

ـ دعنا من هذه النظرة السوداوية .. لا أعتقد أنك جئت إلى هنا لتحدثينى عن اللون الأسود .. فلنتحدث عن مشكلتك .

التقطت نفسًا عميقًا ، ثم قالت بتراجيدية .

ـ اكتئاب .. وقلق .. وأرق .. وتوتر عصبى ونفسى .. فى الواقع إن عالمنا اليوم يندر أن تجد به شيئًا لا يدعو إلى الاكتئاب .. ولكن بداخلى صراعات نفسية وهموم ومخاوف تزيد من رصيد الاكتئاب عندى فتجعلنى أكبر الناس نصيبًا منه .. أعلم ما ستقوله جيدًا .. سوف تنصحنى بالراحة التامة وتغيير المكان والمناظر .. والذهاب إلى أماكن مفتوحة جميلة هادئة تحدها مناظر الطبيعة الساحرة

الخلابة والابتعاد عن المدينة وعن أى مثيرات تسبب لى الاكتئاب أو الإحباط .. والنظر إلى الجانب المشرق من الحياة والنصف الممتلئ من الكوب وعدم تأمل الجانب المظلم من القمر .

صحت ساخرًا :

ـ ما كل هذا ؟ فلنتبادل الأدوار وتجلسى أنت مكانى وأجلس أنا مكانك .. لقد حللت نفسك تحليلاً نفسيًا .. ووصفت حالتك وأسبابها وطرق علاجها .. ما دورى أنا إذن ؟

ـ آسفة يا دكتور .. ولكننى أحببت أن أختصر لك الطريق .

ـ أنت لم تختصرى الطريق .. لقد أزلته من الأساس .. لقد جعلتنى أنسى للحظات أنى الطبيب هنا .. واعتقدت أننى المريض لدرجة تخيلت فيها أننى سأسألك عن موعد الجلسة القادمة .

ابتسمت ابتسامة صافية .. وهذا ما أردته منذ البداية .. لتخرج قليلاً من جو الاكتئاب الذى تحيط به نفسها .. قالت بحياء :

ـ لم أقصد هذا حقيقة .

ـ حسنًا .. فلنبدأ من جديد .. بم تشعرين بالضبط ؟

ـ اكتئاب .. أرق .. كوابيس .. توتر .. خوف من المستقبل .. أتوقع حدوث كوارث .. أعانى من الفوبيا .. الهستريا .. البارانويا .. الوسواس القهرى .. صراعات نفسية ..

قاطعتها قائلاً :

ـ مهلاً .. توقفى للحظة .. أنا لم أطلب منك أن تذكرى قائمة بكل الأمراض النفسية .

قالت بحسرة :

ـ أنا لدى كل هذا بالفعل .

قلت ساخرًا :

ـ إذن أنت لم تتركى شيئًا للآخرين .

لم تبتسم .. على العموم .. أرى أن هذه السيدة قد قرأت كثيرًا فى علم النفس .. وربما دارسة له .. وقد تكون معرفتها به هى سبب مشكلتها .. فمثلاً .. لا يمكنك أن تخاف من الغنغرينا (Gangerene) وأنت لا تعرفها أصلاً .. ويزداد خوفك من الجن كلما قرأت عنهم أكثر .. وإذا علمت بكميات الميكروبات والجراثيم التى تحيط بنا لَمتُّ فزعًا .. وقتها ستشعر أن الجهل نعمة .

وإذا افترضنا أنها درست علم النفس .. لا أستبعد أنها تحلل شخصيتى الآن بينما أجلس أنا أمامها أحاول أن أحلل شخصيتها فى نفس الوقت .. ترى كيف ترانى لو أنها تحلل شخصيتى بالفعل ؟ طردت هذا التساؤل من عقلى وأنا أسألها باهتمام :

ـ ومتى بدأت تشعرين بكل هذا ؟

ـ منذ اليوم الذى نمت فيه ليلاً .

ثم توقفت ولم تكمل .. لا أعلم لماذا .. أم أن إجابتها بهذا الشكل كاملة ؟ هل إجابتها على سؤالى ناقصة أم أننى أتوهم ذلك ؟!

انتظرت سنوات لتكمل جملتها ولكن خشيت أن ينتهى الدهر دون أن تكمل ، فسألتها فى ضيق :

ـ وماذا بعد أن نمت ليلاً .. استيقظت فى الصباح وغسلت وجهك مثلاً ؟

ـ لا .. ولكن فى هذه الليلة حلمت .

وتوقفت عن الحديث مرة أخرى .. هلى هى تمارس نوعًا من التشويق والإثارة فى سرد الحكاية ؟ أم أنها تأثرت بالمسلسلات التليفزيونية التى تنقطع مرارا ؟ هل أسألها أن تكمل جملتها الآن أم أنتظر البقية فى الجلسة القادمة .. ولكن ..

ربما هى من النوع الذى يحب المشاركة فى الحديث .. أى أن تتكلم وتسمع .. أن يكون الجواب بمقدار السؤال لأسأل من جديد فتجيب ، وهكذا .. قلت لها فى غيظ :

ـ من فضلك يا سيدتى .. ماهى مشكلتك بالضبط ؟

رجعت برأسها إلى الوراء ، وقالت :

ـ مشكلتى تتلخص فى كلمتين .

توقفت للحظة لتأخذ نفسًا عميقًا ، ثم أردفت بكل الغموض الذى تملكه :

ـ أرى أناسًا يموتون .

★ ★ ★

3 ـ أرى أناسًا يموتون ..

نفس الجلسة ..

قلت مازحًا لأزيح جو الرعب الذى نسجته بجملتها :

ـ ولكن هذه ثلاث كلمات .

نظرت لى نظرة لم تعجبنى على الإطلاق ، وقالت :

ـ هل هذا كل ما أثار اهتمامك ؟

تصنعت الجدية ، وقلت :

ـ ماذا تعنين بأنك ترين أناسًا يموتون ؟ هل تهوين مشاهدة الأفلام البوليسية ؟

ـ يا دكتور .. أنا أرى أناسًا يموتون بالفعل .

ـ هل هذا يعنى أنك تشاهدين النشرة الإخبارية كثيرًا هذه الأيام ؟

أطلقت تنهيدة ، ثم قالت :

ـ أرى أناسًا يموتون .. أراهم ليلاً .. أراهم فى أحلامى .

قلت بلا مبالاة :

ـ آه .. تعانين من الكوابيس المزعجة .

قالت بغضب :

ـ المشكلة ليست فى الكوابيس المزعجة .

ـ ما المشكلة إذن ؟

ـ المشكلة .. أنها تتحقق .

ـ ماذا ؟

قالت بمأساوية :

ـ كل أحلامى تتحقق يا دكتور .

سألتها باهتمام :

ـ أحلامك تتحقق !! ما الذى جعلك تعتقدين ذلك ؟

أخذت نفسًا عميقًا ، ثم قالت بهدوء :

ـ إن حالتى خاصة جدًا يا دكتور .

علقت قائلاً بصوت منخفض :

ـ البداية الطبيعية .

ـ ماذا ؟!

ـ أكملى حديثك .. ماذا تعنين بأن حالتك خاصة جدًا ؟

ـ حالتى خاصة جدًا لأننى من النوع الذى تتحقق أحلامه .. كل ما أراه ليلاً أثناء نومى أراه يتحقق أمامى فى الأيام التالية .

ـ اذكرى لى أمثلة .. بماذا حلمت وكيف تحقق ؟

ـ إنها أحلام كثيرة جدًا يا دكتور .

ـ فلتذكرى لى بعضها .

ـ مثلاً حلمت بأنى أرى قطة سوداء تذبح ، وفى الصباح رأيت قطة سوداء ميتة فى بئر السلم .. مثلاً حلمت أن ساعتى مفقودة ففقدت منى فى اليوم التالى مباشرة .. مثلاً حلمت بفيلم (رصيف

نمرة ٥) فوجدته يعرض فى اليوم التالى على القناة الثانية فى السهرة .

ابتسمت ابتسامة خفيفة وتمالكت نفسى حتى لا أنفجر أمامها من الضحك ، ثم قلت :

– إن حالتك خاصة بالفعل .. ولكن ألا تلاحظى معى أن الصدفة يمكن أن تلعب دورًا مهمًا فى حياتنا .. وهناك شيئًا آخر .. ربما أنت رأيت القطة الميتة قبل أن تحلمى بها .. وفقدت ساعتك قبل أن تنامى .. وهكذا .. إن هذه الأشياء تحدث كثيرًا فى حياتنا ، فنعتقد دون وعى منا أننا حلمنا بها قبل الحدث وليس العكس .

لا .. أنا متأكدة أننى حلمت أولا ، ثم رأيت القطة بعدها .. وحلمت بفقدان الساعة وأنا مرتدية إياها أثناء نومى .. وفى اليوم التالى لم أجدها .. أما الفيلم فشاهدته بعد أن حلمت به وعلى فكرة لم أكن أعلم أنه سيعرض فى ذلك اليوم حتى لا يذهب تفكيرك إلى احتمال أنى كنت على علم بأنه سيعـ..

قاطعتها سائلاً إياها :

– تقولين إنك حلمت بقطة سوداء ؟ لماذا سوداء ؟ ألا ترين أنك تكثرين من التفكير فى اللون الأسود ؟

– هذا هو ما رأيته فى الحلم .. قطة سوداء .. أنا لم أختر لونها .. أنا أحدثك عن حلم .. هل تعلم ماذا تعنى قطة سوداء فى الحلم ؟

– هل تميلين إلى تفسير الأحلام بهذه الطريقة ؟

– لا .. لأن أحلامى ليست رمزية .. إنها تتحقق كما رأيتها بالضبط .. لا تحتاج إلى تفسير .

سألتها باهتمام :

– وماذا عن حلم الساعة ؟

– ماذا عنه ؟! حلمت بأنى فقدتها وبالفعل تحقق الحلم فى اليوم التالى .

– وكيف وجدتها فيما بعد ؟ هل حلمت بمكانها ؟

– دكتور .. أنا لم أجدها حتى الآن .. ألم تلاحظ أننى لا أرتدى أى ساعات ؟

– هل حلمت بفقدان أشياء أخرى ، ثم بالفعل فقدتها ؟

– نعم .

– مثل ...؟

– دبوس شعر .

فلتتماسك .. يجب أن يتحلى الطبيب النفسى بالصبر .. هذا شرط أساسى لنجاحه كطبيب نفسى .. هكذا فكرت وقتها ، وأفكردومًا .

– أنت لا تعملين .. أليس كذلك ؟

– نعم ، ولماذا أعمل ؟ أنا أملك مالا كثيرًا وزوجى أيضًا .

– هل زوجك يعمل ؟

– نعم .

– أخبرتنى أنكما لم ترزقا بأى ذرية حتى الآن .

ـ نعم .

ـ هل تعيشين أنت وزوجك وحدكما ؟

ـ بالتأكيد .

ـ أفهم من ذلك أنك تمكثين فى البيت بمفردك أثناء وجود زوجك بالعمل .

ـ نعم .. ولكن .. لم كل هذه الأسئلة ؟ .. هل أنت طبيب نفسى أم وكيل نيابة ؟! لا أستبعد أن تسألنى أين كنت وقت وقوع الحادث .

ـ تعجبنى تعليقاتك الساخرة ولكنى لا أريدها فى الوقت الحالى .. أريد منك أن تجيبى على أسئلتى فقط .. اتفقنا ؟

أومأت برأسها إيجابًا ، وقالت :

ـ تفضل .

ـ هل تمارسين أى نشاط اجتماعى ؟ جمعيات نسائية .. نواد .. إلخ .

ـ لا .

ـ أيعنى ذلك أنك لا تخرجين من البيت إطلاقًا ؟

ـ لا .. ليس لهذه الدرجة .. فأنا أزور جاراتى .. أحيانًا أخرج للتسوق .. وهكذا .

أطفأت المسجل ، وقلت لها ببساطة :

ـ إن مشكلتك يا سيدتى هى الفراغ .

صاحت محتجة بغضب هائل :

فراغ !! أحدثك عن كوابيس تتحقق تحدثنى عن فراغ .

قلت بهدوء :

ـ نعم .. لأنك لو تعملين مثلاً لانشغلت بأمور العمل ولما وجدت الوقت الكافى للأحلام ومحاولة تفسيرها .. إن مشكلتك .. وأكررها .. هى الفراغ .

ـ لا أتفق معك فى هذا الرأى .. فكل جيرانى يحلمون مثلى وليس من بينهم من يجلس بلا عمل .. ولكنى أختلف عنهم فى أن أحلامى تتحقق .

قلت محاولاً تهدئتها بسؤال عادى :

ـ حسنًا .. فى أى مهنة تفضلين العمل ؟

نظرت إلى أصابعها شاردة ، ثم نظرت إلى السقف إمعانًا فى التفكير واستغرقت وقتًا طويلاً جعلنى أشعر أنها تستعد لكتابة استمارة الرغبات .. ثم أجابت بعد قرون قائلة بكل ثقة :

ـ سفيرة .

ـ هل كنت تودين الالتحاق بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية ولكن المجمو ...

قاطعتنى قائلة :

ـ أنا لم أكمل تعليمى يا دكتور .

يا للحرج .. سألتها ببساطة :

ـ حسنًا .. تبعًا لمؤهلاتك ماهو العمل المناسب لك ؟

ـ ولماذا العمل ؟! أنا لدى من المال الكثير .. لا أحتاج إلى الوظيفة .

يبدو أنها لم تفهم مقصدى .. لم تفهم أنى أريد شغل فراغها بالعمل .. حسنًا .. طالما أن هذا مستحيل فلنشغله بالهوايات .. سألتها :

ـ ماهى هواياتك المفضلة ؟

ـ مشاهدة برامج المرأة والأفلام .

ـ ما نوعية الأفلام التى تهوين مشاهدتها ؟

ـ أحب كل الأنواع .

ـ أنا أطلب تحديد نوع معين تفضلينه عن غيره .. فلو أنك تقفين فى محل لتأجير شرائط الفيديو .. فما نوع الفيلم الذى تختارينه للمشاهدة ؟ هل ستختارين فيلمًا بوليسيًا أم رعب أم كوميـ..

قاطعتنى قائلة بحماسة مفاجئة :

ـ رعب .. بالتأكيد رعب .

ـ إجابة متوقعة منك .. هناك كوابيس .. لابد من أفلام رعب ، ولكن كيف تحبين مشاهدة أفلام مرعبة وتكرهين رؤية الكوابيس .. هل تقبلين نصيحة منى ؟

ـ نعم .. تفضل .

ـ اعتبرى الكوابيس أفلام رعب تشاهدينها وأنت نائمة .

ـ يادكتور .. أنا لا أخاف من أفلام الرعب لأنى أعلم أنهم ممثلون يتظاهرون بالرعب من أشياء يتظاهرون أنها مرعبة .. أما أن ترى مشاهد فيلم الرعب تتحقق أمامك فهذا هو الرعب بعينه ، وفى حالتى .. الكوابيس لا تخيفنى ولكمن ما يخيفنى هو أن تتحقق .. وهى بالفعل تتحقق .

ـ منطق سليم .. فلنعد مرة أخرى لأحلامك .. أنا أرى أنها أحلام بسيطة وعادية والصدفة لعبت دورًا كبيرًا فيها .. وليس معنى أن أرى قطة سوداء ميتة أو أفقد ساعتى كما جاء فى المنام أن أحلامى تتحقق .

ـ وماذا عن الفيلم ؟

ـ إن الفيلم هو أسخف حلم .. لأن الأفلام تتكرر عادة والمصادفات تحدث كثيرًا .. هذا بالنسبة لاحتمال الصدفة .. أما بالنسبة للاحتمال الآخر وهو احتمال أن ما حلمت به قد رأيته قبل الحلم وهو احتمال معقول لايجب أن نهمله .. فهناك الأحلام التى تعكس ما رأيته بالنهار فلو أنك رأيت صديقتك التى لم تريها منذ أيام الدراسة فجأة فى الشارع وبعد الترحيب دعوتها على الغداء فى منزلك فاعتذرت فلا تتعجبى إذا رأيتها فى منامك ليلاً لأن تفكيرك فيها سيخلق أحلامًا تكون هى بطلتها الرئيسية .. فلو أنك رأيت قطة سوداء مذبوحة فى بئر السلم فستخزن ذاكرتك هذ المشهد حتى يأتى الليل وتذهبين إلى الفراش وتخلدين إلى النوم فيخرج المشهد ليتكون الحلم .. وكذلك عندما فقدت ساعتك فنمت من كثرة

التفكير فشاهدت فى منامك أنك فقدتها ، وهكذا .. وسأضرب لك أمثلة أخرى عن كيفية تكون الأحلام .. أنا على سبيل المثال .. فى طفولتى حلمت أنى أسقط من قمة هرم خوفو فاستيقظت لأجد نفسى نائمًا على الأرض لأنى سقطت من السرير أثناء نومى.. وهكذا جاء السقوط فى الواقع سقوطًا فى الحلم وهذا يعنى أن الأحلام قد تأتى نتيجة لا شعورية لما أدركته حواسنا فى الخارج ،فربما تسمعين صوت جرس المنبه وأنت نائمة فتستقبله حواسك على أنه صوت جرس الباب فتحلمين أن هناك زائرًا ثم تسمع أذناك صوت (عبد الحليم) وهو يشدو فى المذياع بأغنية عاطفية فتحلمين أن هذا الزائر هو (عبد الحليم حافظ) نفسه ، ثم تكملين الحلم بأنه قد أتى ليطلب يدك ثم يجمح بك الخيال فى منامك فتتخيلين أنك تزوجته وأنجبت منه (رشدى أباظة) .. ثم تستيقظين لتكتشفى الحقيقة المفجعة أن (حليم) مات منذ سنوات .. إن الأحلام عادة جميلة .. أجمل من أن تتحقق .

قالت لى بعد أن ظلت صامتة كأبى الهول واحترمت حديثى فلم تقاطعنى حتى أنهيته وتأكدت أنه لم يعد فى جعبتى كلمة أخرى لأقولها .. هنا قررت التحدث .

ـ كل حديثك كان عن حلم القطة السوداء والساعة .. لماذا لم تسألنى يا دكتور عن الناس الذين رأيتهم يموتون فى الحلم وبالفعل ماتوا ؟

ـ ما الذى تعنيننه ؟

ظهر الغضب على وجهها وهى تصيح قائلة :

ـ إن ما حكيته لك حتى الآن مجرد أحلام تتحقق .. لم أحك لك بعد واحدًا من كوابيسى .. لقد ذكرت لك فى البداية أنى أرى أناسًا يموتون .. لماذا لم تسألنى عنهم ؟ هل نسيت جملتى هذه أم أنك تخشى السؤال ؟

ـ لا .. لم أنسها .. ولكنى اعتقدت أنك تقصدين فيلم (رصيف نمرة ٥) .. لقد كان مليئًا بالقتلى .. حلمت بالفيلم .. رأيت أناسًا يموتون فيه .. وبالفعل تحقق موتهم فى الفيلم عندما عرض على الـ...

ابتلعت جملتى عندما رأيت غضبها يزداد ، ثم رأيتها تقول حانقة بسخرية لاذعة :

ـ أنت عبقرى يا دكتور .

تجاهلت سخريتها ، واستمعت لها وهى تتابع قائلة :

ـ ليت الأمر بهذه البساطة .. حسنًا .. لن أحكى لك مرة أخرى عن هذه الأحلام البسيطة مثل حلم الساعة والقطة السوداء والشحاذ الأعرج والصورة المسكورة .. إلخ من الأحلام التى رأيتها وتحققت .. كنت أخشى عليك من سماع الكوابيس المريعة .. ولكنك أنت أردت هذا .. فليكن .. سوف أقص عليك الكوارث الشنيعة التى حلمت بها وتحققت .. المصائب التى رأيتها قبل أن تقع .. وأحذر أن يقشعر بدنك من هول ما ستسمع .. أو أن يشيب شعرك مما سأقوله .

★ ★ ★

4 ـ الحاسة السادسة ..

نفس الجلسة ..

كوابيس مريعة !! كوارث شنيعة !! مصائب !! يقشعر بدنى !! يشيب شعرى !! أتمنى ألا تتحدث عن موت كلبها المدلل .. رفيق عمرها .. أنا أعرف هذا النوع من السيدات الراقيات المرفهات .. اللاتى يعتقدن أن يوم مصرع كلبهن هو نهاية العالم .. أو على الأقل هو اليوم الذى يسبق نهاية العالم .

ولكن ما قالته لى بعد ذلك خالف كل توقعاتى .. كان مفاجأة حقيقية .. بالنسبة لى على الأقل .

قالت لى السيدة (ماجدة) :

ـ والداى .. لقد رأيتهما يموتان فى الحلم قبل وقوع الحادث بقليل .. رأيتهما وهما يجلسان فى الطائرة .. يتهامسان سويًا ثم تنطلق ضحكاتهما لتثير غيرة بعض الركاب وتوقظ بعضًا آخر ، ثم تلتفت والدتى لتنظر من النافذة .. فى نفس اللحظة حدث العطل .. اهتزت الطائرة بعنف .. أعلن الطيار عن عطل بسيط فى المحرك الأيسر .. وأنه سيضطر إلى الهبوط فى دولة قريبة .. ولكن والدتى لم تصدق ما سمعته .. كان تشعر أن المسألة أكبر من ذلك .. كانت تشعر أنها النهاية .. ربت والدى على يديها وطمأنها .. هنا حدث السقوط .. اضطراب شامل فى الطائرة .. أشياء تتساقط هنا وهناك .. أناس يتدحرجون لم يهتموا كثيرًا بربط أحزمتهم .. حتى الذين ربطوها لم تسعفهم كثيرًا .. صاروا فى أوضاع صعبة .. ثم

ارتطمت الطائرة بمياه المحيط وآخر ما سمعته هو نطق والدى بالشهادة قبل أن تغمر المياه الطائرة وتغوص بركابها .

قلت لها بهدوء متوجسًا خيفة من رد فعلها :

ـ هل هذا ما حلمت به أم تقرير الصندوق الأسود ؟

يبدو أنها لم تسمعنى لأنها تابعت قائلة :

ـ عمى أيضًا رأيته .. كان يقود سيارته يستمع لأغنية (فيروز) : «أعطنى الناى وغنّ» .. كان يدندن معها عندما فوجئ بسيارة نقل تأتى من الاتجاه المعاكس .. المفاجأة أربكته .. حاول أن يتجه إلى اليمين ولكن كانت هناك سيارة إلى يمينه كان بإمكانه أن يهدئ السرعة ويسير وراءها ولكن ساعة القدر يعمى البصر .. الطريق كان ضيقًا .. لن يتسع إلى الثلاثة .. ففكر أن يصطدم بالسور ويسقط فى المياه أفضل من مواجهة الموت على يد السيارة العملاقة .

قلت بهدوء :

ـ هل كل أقاربك ماتوا غرقى .. ألم يمت أحد عندكم ميتة طبيعية ؟

توقعت رد فعل آخر غير الذى حدث .. إن الذى حدث هو أننى لم أتلق أى رد فعل .

يبدو أنها لم تعد تسمعنى منذ سنوات .. فوجئت بها تفتح حقيبتها لتخرج منها قصاصة من جريدة .. نظرت إليها ثم أعطتها لى .. خمنت أن تكون نعى لوالديها .. أو عمها .. أو قريب آخر لها مات غرقًا أيضًا .. ولكنها لم تكن كذلك .

كانت القصاصة تحمل خبرًا عن حادث أتوبيس ومصرع عشرين شخصًا وإصابة آخرين .. ويتوسط الخبر صورة للأتوبيس الذى تحول إلى نصف حجمه الأصلى ، ولم يعد باستطاعتك تمييز مقدمته من مؤخرته .. ويبدو أننى أطلت النظر إلى الصورة لدرجة جعلتها تسألنى :

ـ هل تستطيع القراءة ؟

ابتسمت لمزحتها .. وقلت باقتضاب :

ـ حادث .. وبعد ؟!

فوجئت بها تمد يدها وتأخذ القصاصة عنوة وتشرع فى قراءتها .. يبدو أنها تعتقد أننى لم أقرأ الخبر :

ـ مصرع عشرين وإصابة آخرين فى حادث أتوبيس بالمعادى .. تفاصيل الخبر تقول لقى عشرين ..

قاطعت قراءتها للخبر قائلاً :

ـ لن نقضى الجلسة فى قراءة حادث .. إن الحوادث أصبحت من معالم حياتنا .. وإن كنا نستطيع العيش بدونها .

قالت لى بعصبية :

ـ هل تعرف لماذا أحتفظ بهذا الخبر ؟

ـ هذا ما أريد معرفته منذ سنوات .

ـ لأن هذه الحادثة رأيتها بالتفصيل قبل وقوعها .. هل فهمت الآن ؟

سألتها مندهشًا :

ـ هل تعنين أنك رأيت حادث الأتوبيس فى حلمك ؟

أجابتنى وقد وضعت فى نظراتها كل الغموض الذى تملكه والذى لا تملكه :

ـ نعم .. رأيته وبمنتهى الوضوح .. وكأنه بث مباشر من موقع الحادث .

ـ ما الذى رأيته بالضبط ؟

ـ رأيتهم وهو يموتون .. صياح السائق .. انزعاج الركاب .. السرعة الشديدة .. الفرامل لا تعمل .. قفز بعض الركاب من النوافذ .. تمسك الباقى بمقاعدهم .. صراخ النساء .. بكاء الأطفال .. الذعر على وجوه الجميع .. ثم النهاية .

ـ سقطوا فى المياه ؟

ـ لا .. اصطدموا بحائط .

سألت السيدة (ماجدة) مستفسرًا :

هل أنت متأكدة من أن الحلم كان قبل الحادث وليس بعده ؟

ـ نعم .. تمام التأكد .. ويمكنك أن تسأل زوجى .

ـ حسنا .. أنا أثق فيك ، وفى حديثك .. أنت لا تكذبين .. كل ما أريده أن تحكى لى كل ما يجول بخاطرك حول هذا الأمر واعتبرينى آذانًا مصغية فقط لا غير .

استرخت أكثر ونظرت إلى السقف شاردة ، ثم قالت :

ـ حسنًا .. أنا أعتقد أن الأمر كله بدأ منذ حادث أبى وأمى .. يمكنك أن تعتبريها بداية ظهور تلك (الحاسة السادسة) .. كما أحب أن أسميها .

ـ حاسة سادسة ؟!

ـ نعم .. إنها حاسة تجعلنى أرى ما سيحدث فى المستقبل .. إن الإنسان العادى يملك حاسة البصر ، يرى ما تقع عليه عينه .. أنا مثل الجميع .. أرى مثلهم .. أرى ما يرونه ولكنى أزيد عليهم بهذه الحاسة .. أرى ما سوف يرونه .. لا أعلم هل كنت أملكها قبل ذلك .. منذ الصغر مثلاً ولكنى لم أكتشفها إلا الآن أم أننى امتلكتها فجأة .. ليلة وفاة أبى وأمى .. حيث رأيت أول كابوس من كوابيسى التى تتحقق .

أخذت نفسًا عميقًا .. ثم تابعت قائلة :

ـ بعد هذه الليلة بدأت تتوالى الكوابيس المزعجة .. وتتوالى الليالى السوداء التى أستيقظ فيها دومًا مفزوعة بسبب ما رأيته .. إن ما يخيفنى حقا ليس رؤية الكوابيس .

ـ أتفهم ذلك .. لقد ذكرت من قبل أن ما يخيفك هو أنها تتحقق .

ـ ولا هذا أيضًا .

سألتها مندهشًا :

ـ ماذا إذن ؟

إن أكثر ما يخيفنى هو اعتقادى بأننى السبب وراء هذه الكوارث .

سألتها باهتمام حقيقى :

ـ أرجو التوضيح من فضلك .. ماذا تقصدين بأنك السبب وراء هذه الكوارث ؟

فأجابتنى بهدوء :

ـ إن لدى شعورًا بأننى لو لم أحلم لما حدثت هذه الكوارث .. أى أنها حدثت لأننى حلمت بها .

فى الواقع لو أنها تركتنى أضع عشرة احتمالات لتفسير عبارتها لما ورد إلى ذهنى ذلك التفسير الذى قالته .

فلنوضح أكثر ما قالته .. إنها تحلم بكارثة ثم تحدث الكارثة التى حلمت بها .. هذا واضح ومفهوم ، ولكن أن تظن أن الكارثة حدثت لأنها حلمت بها فهذا أمر عسير الفهم .. ويعنى أنها لو لم تحلم بالكارثة لما حدثت فى الواقع .

فلنضرب مثالاً للتوضيح: أنت حلمت بصديقك يسقط من شجرة .. وفى يوم تجده يتسلق شجرة فتذهب إليه لتحذره فيراك من بعيد فيلوح لك فيفقد توازنه فيسقط من الشجرة .. ويتحقق الحلم .. وهذا يعنى أنك لو لم تحلم بهذا الحلم لما ذهبت إليه لتحذره ولما سقط من الشجرة .

نتساءل هنا : هل كان السقوط حتمياً وأنت مجرد شاهد ليس لك أى دور .. أم أنه سقط لأنه أراد أن يحييك فجاء السقوط نتيجة لوجودك ، وكان وجودك لتحذيره نتيجة للحلم .. وهذا يعنى أن رؤيتك للحلم ساهمت فى تنفيذه .

هى أيضًا تتساءل : هل حدثت الكارثة لأنه مقدر لها أن تحدث وهى مجرد شاهدة .. أم أن الكارثة حدثت لأنها شاهدتها .. حلمت بها .

أتذكر الآن تحذير الأمهات لأولادهن ألا يقصوا كوابيسهم حتى

لا تتحقق .. إنه نفس المنطق تقريبًا .

نظرت السيدة (ماجدة) لى نظرة غامضة لم أفهم فحواها .. ثم وضعت يدها فى حقيبتها مرة أخرى .. جعلتنى أتخيل حقيبتها وكأنها (جراب الحاوى) .. لن أندهش إذا أخرجت منها أرنبًا أبيض أو حمامتين .. هنا يأتى سؤال : ما الذى ستخرجه الآن ؟ الإجابة سنعرفها بعد قليل .

ماهذا ؟ قصاصة من جريدة أيضًا .. ماهى هواية هذه السيدة بالضبط ؟

ـ « هل تعرفه ؟ هل رأيته من قبل ؟ » .

قالتها لى وهى تعطينى القصاصة التى تحمل خبرًا يتوسطه صورة لرجل يحمل وجهًا رأيته من قبل .. رأيته مؤخرًا .. رأيته عن قرب .

الخبر كان بعنوان : انتحار مهندس بترول .. قالت لى بهدوء :

ـ إنه الرجل الذى منعته من الانتحار .

نعم .. إنه هو .. لقد تذكرته الآن .. إنه المهندس (عزت البدرى) .. والذى حاول الانتحار أول أمس وأقنعته بالعدول عن الفكرة ، فكيف انتحر .. كيف ؟ سألتها :

ـ هل هو أحد أقاربك ؟

أجابت على الفور :

ـ لا .

سألتها فى شك :

ـ كيف عرفت أننى منعته من الانتحار ؟

★ ★ ★

5 ـ جـارتـى !

نفس الجلسة ..

أجابتنى السيدة (ماجدة) على سؤالى بهدوء قائلة :

ـ كنت موجودة هناك .. أسفل العمارة التى يسكن بها .. فى نفس الليلة التى حاول فيها الانتحار ومنعته من ذلك .. أنا يا دكتور واحدة من الذين وزعت عليهم كروتك ليلتها .. ومنذ تلك الليلة قرر زوجى أن يحضرنى إلى عيادتك لعلك تجد حلا لمأساتى .

أدخلت يدها فى الحقيبة وأخرجت كارتا ، وقالت :

ـ وما زلت أحتفظ به حتى الآن .

★ ★ ★

جذبنى (ياسر) من ذراعى ، وهو يصيح قائلاً :

ـ طبيب نفسى .. هذا هو التفسير .. ولكن .. ماذا نفعل لو أقدم على ذلك مرة أخرى وأنت لم تكـ ..

قاطعته قائلاً :

ـ تعنى .. لو أنه أقدم على ذلك مرة أخرى ولم أكن موجودًا حينها .

ربت على كتفه وقلت بكل ثقة :

ـ تأكد أنه لن يفعلها مرة أخرى .. إن ما قلته له اليوم يكفيه مدى الحياة .. ثق أنه لن يفكر فى الانتحار أبدًا .

★ ★ ★

أتذكر هذا الحوار وأنا أقرأ خبر انتحار المهندس (عزت البدرى) .. الخبر الذى يعلمنى أنه انتحر فى اليوم التالى .. الخبر

الذى يخرج لسانه قائلاً لى :

ـ كنت مغرورًا فى حديثك لدرجة غير محتملة يا دكتور .

قلت لها متعجبًا :

ـ ولكنه انتحر .

ـ أعلم .

ـ ومع ذلك أتيت إلى عيادتى !

ـ ما الذى تعنيه ؟

قلت بغضب :

ـ أعنى ببساطة .. إننى لم أنجح فى إقناعه بالعدول عن فكرة الانتحار .. فشلت فى إنقاذه .. فشلت فى أداء مهمتى .. ومع ذلك تأتين إلىَ منتظرة أن تجدى عندى حلاً لمشكلتك .

قالت لى وهى تحاول تهدئتى :

ـ لا تقلل من شأنك يا دكتور .. أولاً : أنت قمت بما يمليه عليك ضميرك وفعلت ما بوسعك لإنقاذه . ثانيًا : زوجى لم يقرأ الخبر .. لذا هو ما زال مقتنعًا بالمجىء إلى هنا وثالثًا ..

صمتت قليلاً لتلتقط نفسًا عميقًا ، ثم تابعت قائلة بثقة :

ـ هو لم ينتحر .

نظرت إليها مندهشًا :

ـ ماذا ؟ كيف ؟ إن الخبر ...

قاطعتنى قائلة :

ـ لقد حلمت به أيضًا .

ـ مزيد من التفاصيل من فضلك .

شعرت بالسعادة حينما أبديت اهتمامى بأحد أحلامها .. قالت :

ـ لقد حلمت بموته فى نفس الليلة التى حاول فيها الانتحار .. أى أن الحلم كان فى صباح يوم الجمعة تقريبًا .. ما رأيته فى الحلم هو .. المهندس واقف على سور سطح البناية كما رأيناه من قبل فى تلك الليلة .. ولكن فى الحلم لمحت يدًا .. يدًا قوية تدفعه من الخلف .. رأيت المهندس يحاول التشبث بأى شىء ليمنع جسده من السقوط .. ولكن باءت كل محاولاته بالفشل .. فسقط سريعًا وارتطم جسده بالأرض بعنف .. هنا رأيت يد الجانى الأخرى .. كانت تحمل مسدسًا .

ـ ولكن الخبر يقول إنه مات نتيجة ارتطامه بالأرض .

ـ نعم .. وأنا لم أقل إنه مات بغير ذلك .. إن ما أردت قوله هو أن الجانى استخدم المسدس للتهديد .. لإجبار المهندس على الوقوف على سطح البناية .

ـ وطبعًا سيصدق الناس قصة انتحاره لأنه حاول ذلك بالفعل فى الليلة التى تسبقها .

ـ لقد استغل المجرم هذه الواقعة لينفذ جريمته الكاملة .

ـ هذا على افتراض أن نظريتك صحيحة وأن هذا هو ما حدث بالفعل .

ـ أنا متأكدة من صدق أحلامى .

ـ لماذا لا تعملين صحفية ؟

لم ترد على سؤالى واكتفت بالصمت ، فسألتها :

ـ لقد رأيت يدى المجرم جيدًا .. ألم تستطيعى رؤية وجهه ؟

ـ لا ، للأسف .. الرؤية لم تكن ممكنة من الزاوية التى أرى من خلالها .

ـ والتصوير كان سيئًا أيضًا .. والتعليق كان أسوأ .

ـ أنا أتحدث عن حلم .. لاعن مباراة .. هل تسخر منى يا دكتور؟

التزمت أنا الصمت هذه المرة .. كان عقلى بين مؤيد ومعارض .. هل هو انتحر أم لا ؟ أتمنى ألا يكون انتحارًا وإن كان هذا يعنى أن حلمها قد تحقق بالفعل .

★ ★ ★

ـ « أنا قلقلة على (حسناء) » ..

قالتها السيدة (ماجدة) بطريقة مفاجئة فسألتها بالطبع عن (حسناء) ، فقالت :

ـ إنها جارتى (حسناء) .. سيدة جميلة جداً .. مهذبة جدًا .. أرملة .. لم تتزوج منذ وفاة زوجها .. قررت أن تعيش حياتها من أجل رعاية أبنائها فقط .

ـ حسنًا .. لماذا أنت قلقة عليها ؟ هل حلمت بها أيضًا ؟

أجابتنى بكل ثقة :

ـ نعم بالتأكيد .. فى رأيك لماذا سأكون قلقة عليها إن لم أكن قد حلمت بها ؟

هذه السيدة لا تترك أحدًا ممن تعرفه إلا وتحلم به .. وللأسف تحلم دائمًا بكوابيس مريعة .. ترى بماذا حلمت ؟ هل جارتها انتحرت أيضًا أم سقطت فى مياه ؟

ـ وبماذا حلمت ؟

ـ بيتها يحترق .. إن النار ستلتهمه .. وهذا أمر واقع سيحدث إما اليوم ، أو الغد ، أو بعد الغد .. فالمهم أنه سيحدث ، إن أحلامى لا تخيب .. تتحقق دائمًا .

شعرت أنها قالت جملتها الأخيرة بفخر .. إنها ترى أن أحلامها أصدق من نشرة الأرصاد الجوية .

تأملت انفعالاتها جيدًا .. إنها سعيدة بأن أحلامها لا تخيب ظنها .. بالرغم مما تعانيه منها .. انفعالات متناقضة .. سعيدة بمتلاكها هذه الموهبة أو الحاسة السادسة ـ كما تسميها ـ ، وفى نفس الوقت تعيسة بما تعانيه منها .. عندما تضع رأسها على الوسادة وتنام .. أو عندما تتصفح جريدة الصباح وتجد أن ما حلمت به قد تحقق .

أعتقد أنها فى مثل لك اللحظة سوف تصيح فزعًا : (يا إلهى .. حادثة مريعة .. لقد تحققت بالفعل) ، ثم تبتسم بعدها فى ثقة ، وتقول: (كنت أعلم أنها ستتحقق) ، ثم تقص الخبر من الجريدة ، وتحتفظ به .. لأنه يؤكد لها ويذكرها دائمًا بصدق أحلامها .

طلبت منها أن تشرح لى الحلم الذى رأت فيه بيت جارتها يحترق ، فقالت :

ـ حلمت بأن هناك طباخًا .. يعد وجبة ما ، فوضح المقلاة ، ثم سكب بعض نقاط الزيت فى المقلاة ، ثم أشعل النار .. نار الموقد ثم وضع شرائح بصل مع صلصة وأخذ يقلب بملعقة ، ثم وضع منزل جارتى (حسناء) مع بعض البيض ، وعاد يقلب مرة أخرى .. ولكن فجأة زادت النار .. فاحترق كل ما وضعه فى المقلاة بما فى ذلك منزل جارتى .

فعلقت ساخرًا :

ـ وبالهنا والشفا .

لم تبتسم ، فتابعت قائلاً فى سخرية :

ـ هل هذا هو الحلم .. أم حلقة من برنامج (طبق اليوم) ؟

رفعت يديها لأعلى بغضب ، وقالت بعصبية :

ـ أنا لا أمزح يا دكتور .. فلا تسخر منى أرجوك .

نظرت لى بجدية ، وقالت بصوت يعلو تدريجيًا :

ـ أنا رأيت هذا الحلم بالفعل .. وما رأيته يعنى بالتأكيد أن منزل جارتى سيحترق .. ولسوف يحترق .. سوف يتحقق هذا الحلم مثل بقية الأحلام السابقة .. والقادمة أيضًا .. كل الكوابيس تتحقق .. وكلها توقظنى من نومى بأسوأ طريقة يمكن تخيلها .. وليتنى أظل مستيقظة للأبد حتى لا أنام فأحلم بمثلها .. أو ليتنى أظل نائمة للأبد فلا أستيقظ أبدًا لأجد كوابيسى تتحقق .. أنا خائفة .. خائفة جدًا .

ثم ازدادت عصبيتها أثناء حديثها وبدأ جسدها يرتعد فطلبت منها الاسترخاء ، ولكنها تابعت قائلة وقدت بدت لى أشبه بعاصفة من الصعب الوقوف أمامها :

ـ أنا خائفة جدًا .. خائفة على جارتى .. خائفة أن يتحقق الحلم .. خائفة على بقية جيرانى .. أقاربى .. أصدقائى .. أخاف أن أحلم بهم .. أخاف أن يتحقق ما حلمته لهم .. لأنه سيكون بالتأكيد كابوسًا شنيعًا .. أخاف أن أكون أنا السبب .. ربما لو لم أحلم بهم لما ضرهم شىء .. أشعر أنى مسئولة عما حدث لهم أو سيحدث لهم لأنى رأيته قبلهم فى الحلم .. ربما كان هذا الاحتمال عسير التصديق ولكنه أصبح يسيطر على عقلى بطريقة عنيفة ، ولهذا كله أخاف النوم .. الأحلام .. الغد .. الصباح .. شروق الشمس .. بالله عليك كيف أجد الراحة وقد صار النوم نفسه جحيمًا ؟ وليت الأمر يقتصر على الكوابيس لصار الأمر معقولاً .. إن الكوابيس لا تقتل النائمين .. نعم .. ولكن كابوسى هو أنى أعلم أنهم سيموتون بعد استيقاظهم .

ثم توقفت .. لقد بلغ الانفعال ذروته حتى لم تعد تستطيع تحمله ، لقد استنفدت طاقتها فتوقفت لتستكين ، ساعدتها على الاسترخاء التام بعد هذا المجهود الشنيع الذى بذلته فى رثاء نفسها .

فكرت للحظات .. إن هذه السيدة صادقة تمامًا .. إنها تعيش جحيمًا حقيقيًا بالفعل .. وأسوأ ما فى الجحيم هو أنك لا تعرف متى سينتهى .. أو أنك على علم بأنه لن ينتهى أبدًا .. أخشى على هذه

السيدة أن تفكر فى التخلص من هذا الجحيم بالانتحار .. ستكون كارثة .. ولكنى أراها أعقل من أن تفعل .. وتوقعت أن تهدأ قليلاً ولكنها عادت تستكمل وصف المأساة التى تحياها :

ـ جربت أن أظل مستيقظة للأبد .. ولكنى فشلت .. النوم دائمًا يغلبنى .. جربت النوم نهارًا ظنا منى أن الأحلام قد لا تأتى نهارًا ولكنى كنت واهمة .. لأنى رأيت كوابيس وكانت أسوأ من ذى قبل وتحققت أيضًا .. وهكذا ترانى جربت كل الوسائل حتى لم يعد أمامى سوى الذهاب إلى طبيب نفسى .. لذا أرجوك يا دكتور .. ساعدنى .. لابد من وسيلة لإيقاف هذه الأحلام ساعدنى .. وإلا ستجدنى حتمًا فى يوم ما أجوب الشوارع بلا هدى .. أشد فى شعرى وأقذف الناس بالحجارة .

كلماتها أثرت فى بعمق .. إنها محقة ، ولكى تدرك عزيزى القارئ مدى المأساة التى تعيشها هذه السيدة .. ضع نفسك مكانها ولو لدقيقة فقط .. وتخيل نفسك محاطا برؤية الكوابيس ليلاً وبحدوثها نهارًا .. ماذا لو .. ؟

قلت لها بهدوء وقد بدا لى بصورة واضحة المأزق الكابوسى الذى تعيشه فى أسوأ صوره :

ـ حسنًا .. استرخى .. كل ما أطلبه منك هو الاسترخاء .. وتأكدى أن لكل مشكلة حلاً .

ـ إلا مشكلتى .

ـ هل حاولت يومًا ما أن تمنعى حدوث هذه الكوارث ؟ ألست تحلمين بها قبل وقوعها ؟

ـ نعم ، أحلم بها قبل وقوعها ، ولكن كيف سأمنعها ؟

ـ مثلاً .. تحذير جارتك .

ـ لقد فعلت بالفعل .. فى البداية ترددت فى إخبارها .. أحيانًا يقولون إن الحلم يتحقق إذا قصصته لأحد لذا قررت ألا أخبرها به فى البداية ، ولكنى خشيت أن يتحقق رغم ذلك ، حينها سأشعر بالذنب لأنى لم أحذرها .. فى النهاية حسمت ترددى وحذرتها .. زرتها اليوم وحكيت لها ما رأيته فى الحلم ونصحتها بتأمين نفسها بمطفأة حريق والتأكد من كونها تعمل بصورة جيدة .. وألا تستعمل النار إلا فى أضيق الحدود وأن تكون حريصة ويقظة فلا تجعل أولادها يقتربون من أى مصدر للنار .

ـ هذا جيد جداً .. بل ممتاز .

ـ ولكنها للأسف اعتبرتنى معتوهة .. ولم تصدقنى .

ـ معها حق .

نظرت لى بغضب وتطاير الشرر من عينيها ، وهى تصيح قائلة :

ـ مـ .. ماذا .. ماذا تقول ؟

ـ لا أقصد الإهانة .. ولكن ألا ترين معى أن رد فعلها منطقى ؟ كيف تصدقك وأنت تخبرينها بأنك رأيت فى الحلم طريقة عمل

(عجة) وكان منزلها أحد المقادير ، ثم احترقت (العجة) وتفحمت لأن الطباخ فاشل .

ـ ولكنك تصدقنى .. أليس كذلك ؟

ـ بالطبع أصدقك .

أنا فعلاً أصدقها .. بمعنى أدق .. هى لا تكذب علىّ .. هى مؤمنة تمامًا بأن أحلامها تتحقق ولكن هذا لا يعنى أنها تتحقق .. ربما كانت تتوهم ذلك .. وعندما تكون طبيبًا نفسيًا مثلاً ستعتاد على مثل هذه الكلمات : (أصدقك ، أؤيدك ، قرارك صائب ، نظرية سليمة .. إلخ) .. عندما تتعامل مع مثل هذه الحالات بمنحهم الثقة والتأييد فيما يقولونه .. فلو قال لك أحدهم إنه جوال دقيق .. لا تعترض .. فقط احمله على ظهرك ، ثم ضعه بجوار جدار خارج عيادتك .. هكذا تسير الأمور .

★ ★ ★

انتهت الجلسة .. كتبت لها بعض المهدئات وحددت لها يوم الثلاثاء القادم كموعد للجلسة القادمة .. فوجئت بها تصيح قائلة :

ـ مهدئات ! مهدئات ! بعد كل ما قلته لك تعطينى فى النهاية مهدئات .

ـ هل تريدنى أن أكتب لك على منوم ؟

ـ وهلى تعتقد أن مشكلتى هى عدم القدرة على النوم ؟

ـ لا .. ولهذا لم ..

قاطعتنى قائلة :

ـ أنا أريد أن أظل مستيقظة .. حتى يوم مماتى .. اكتب لى منبهات .

ـ إن النوم ضرورى جداً .. ولن يستطيع جسدك تحمل الاستيقاظ لفترة طويلة .. لقد خلق الله لنا النوم لكى يعطى لأجسادنا الراحة التى تلزمها حتى تستطيع أن تكمل المسيرة عند الاستيقاظ .. إن هذه هى الطبيعة التى خلقنا عليها .

ـ حسنًا .. أعطنى دواء يمنع الكوابيس .

ـ دواء يمنع الكوابيس ! لو أن هناك واحدًا فأخبرينى به لأن هناك مرضى كثيرين يعانون من هذه المسألة .

ـ لا يوجد مثل هذا الدواء ! بم سيفيدنى الطب النفسى إذن ؟

ـ يبدو أن لديك فكرة خاطئة عن الطب النفسى .. نحن لا نعتمد كثيرًا على الأدوية فى مجالنا .. لذا لا تعتقدى أن لدى أدوية مثل مانع للكوابيس .. مضاد للفوبيا .. مقوى للشخصية .

حملت حقيبتها واتجهت إلى الباب ، وهى تقول :

ـ أتعلم يا دكتور .. قبل ذلك كنت أرى أن الطب النفسى وهم ؟

وقبل أن تفتح الباب أكملت قائلة :

ـ اليوم تأكدت من ذلك .

★ ★ ★

6 ـ الفـراشـة السـوداء ..

بعد الجلسة ..

خرجت إلى الصالة حيث جلس زوج السيدة (ماجدة) منتظرًا .

نسيت أن أحدثكم عن الأستاذ (وليد) زوج السيدة (ماجدة) .. إنه طويل نوعًا ما ، رفيع ، شعر قصير ، شارب كث .. أنيق .. وسيم إلى حد ما .. أعرف أننى سيئ جدًا فى وصف هيئة البشر الخارجية .. ولكنى متأكد من براعتى التامة فى وصف حالة البشر الداخلية .. فلو أنك أردت أن أصف لك السيدة (ماجدة) والأستاذ (وليد) بطريقة المحلل النفسى لانتهت هذه الرواية ولم ينته وصف شخصياتهم .

انتحيت به جانبًا ، وسألته :

ـ هل تحلم فعلاً بأشياء قبل حدوثها .. أم تحلم بها بعد حدوثها ؟

ـ أنا لا أحلم بأى شىء .

ـ أعنى زوجتك .

ـ آه .. فى الواقع .. إنها تحلم بأشياء مخيفة وللأسف تحدث .. كل كوابيسها تتحقق .

ـ هل أنت متأكد من ذلك ؟

ـ تمام التأكد .

ـ هل تتعاطى أى شىء .. حبوب مثلاً ؟

ـ أنا .. لا .. أبدًا .

ـ أنا لا أسأل عنك .. أسأل عنها هى .

ـ هى أيضًا لا .. إنها حتى لا تستخدم أقراصًا منومة .

ـ هل تسير أثناء النوم ؟

ـ لا .

ـ أنا أعنى زوجتك .

ـ أعرف ذلك يا دكتور .. والإجابة كما قلت : لا .

ـ حسنًا ، سأطلب منك طلبًا بسيطًا .. أن تراقبها جيدًا نهارًا وليلاً .. هل يمكنك هذا ؟

ـ يمكننى ولكن ..

ـ لا يوجد لكن .. أعلم أن لديك أعمالك ولكن حاول أن تتفرغ قليلاً هذه الأيام من أجل مراقبتها .. ولكن إياك أن تشعر أنك تراقبها .

ـ كيف أراقبها دون أن أشعر أنى أراقبها ؟!

ابتسمت فى غيظ ، وقلت :

ـ دون أن تشعر (هى لا أنت) أنك تراقبها .. أريدك أن تتفرغ لمراقبتها .. أخبرها أنك أعطيت لنفسك إجازة .. تريد أن ترتاح قليلاً من عبء العمل .. وحاولا أن تقضيا الأيام القادمة ما بين نزهات خلوية ورحلات .

هزّ رأسه دليل على الفهم .. أعتقد أنه سيحاول تنفيذ ما قلته .

« هل أصبحت مجنونة ؟ »

سألنى الأستاذ (وليد) بقلق ، فأجبته :

ـ من قال هذا ؟ ربما هى على حافة الجنون .. ولكن ما زال هناك أمل .. إن حالتها الآن يمكن اعتبارها عادية .. مضطربة نوعًا ما ، ولكن بعد عدة جلسات يمكن أن نعيد الأمان والطمأنينة إلى قلبها .. إن ما تحتاجه هو علاج معرفى لتغيير بعض المفاهيم عندها .. فقط أريد منك مراقبة جيدة .. فربما فسرت لى هذه المراقبة الكثير والكثير .

★ ★ ★

اليوم : الأحد ٦ يونيو الساعة الرابعة مساء

المكان : كازينو على النيل

أنا طبيب نفسى أؤمن بأن الصحة النفسية أهم من الصحة الجسدية والمرض النفسى أخطر من المرض العضوى وأصعب فى علاجه .. وأؤمن بأن لذة الحياة تأتى للفرد بالراحة النفسية ، والراحة النفسية لن تأتى إلا بالاستقرار ، والاستقرار لن يأتى إلا بالزواج ولهذا خطبت وسأتزوج قريبًا بإذن الله .. وليتك تحلم مثلى بتكوين أسرة صغيرة ، تكون أنت رب الأسرة ولك زوجة مخلصة تشاركك أحلامك وطموحاتك ، وأبناء تشعر بالسعادة الكاملة وهم ينادونك (بابا .. بابا) ، ويصيحون بأعلى صوتهم عند عودتك من العمل :

ـ « بابا ته .. بابا ته .. بابا ته من الشوغل » .

وتداعبهم وتحمل همهم وتشعر أنك الوحيد فى الكرة الأرضية المسئول عنهم .. تلك هى السعادة الحقيقية التى تنبع منها الصحة النفسية .

خطيبتى (نادين) ..

كيف أصفها وهى أجمل من رأيت فى حياتى ؟ إنها أجمل من (.....) .

وضع بين القوسين ـ عزيزى القارئ ـ اسم أجمل امرأة رأيتها فى حياتك .. وأنا كلى ثقة أن خطيبتى ستكون أجمل .. أجمل منها بكثير .

أشعر أنها أجمل من أن ترافقنى ، أرق من تتحملنى .. أعدها بأن أكون لها حبيبًا مخلصًا وزوجًا وفيًا وأبا صالحًا لأولادنا .. تعدنى بأن تكون كل شىء فى حياتى .

أعدها بأن سأقتل نفسى إذا خنتها .. تعدنى بأنها ستقتل نفسها بعد أن تقتلنى إذا علمت أنى خنتها .

عندما أجلس معها أشعر أن العالم أصبح أنا وهى فقط .. ولكم تمنيت أن يحدث هذا بالفعل .

تمنيت هذا وأكثر عندما كنت جالسًا معها فى ذلك الكازينو الراقى المطل على النيل والذى يذكرنا بأول لقاء بيننا .. طلبت لها عصير برتقال وطلبت لنفسى فنجان قهوة .. وأحضرهما النادل .. الغريب فى الأمر أننى لم أنتبه لذلك .. سوى عندما قالت أميرتى :

ـ هل ستظل ناظرًا إلىّ هكذا ولن نتحدث .. على الأقل اشرب القهوة قبل أن تبرد .

أجبتها هامسًا حتى لا أؤذى أذنيها الرقيقتين :

ـ من قال إننى لم أتحدث ؟ أنا كنت أتحدث بالفعل ولكن بلغة العيون .

ابتسمت فازداد وجهها إشراقًا ، وصفقت بيديها قائلة فى جذل :

ـ أنت شاعر .. من قال إنك طبيب نفسى ؟! أنت بالتأكيد تكذب علىّ !

قلت لها برومانسية صادقة :

ـ ليتنى شاعر حقًا .. لصرت أبلغ من شكسبير فى وصف حب روميو ، وأبلغ من شوقى فى وصف حب قيس لأنهما بالتأكيد لم يشعرا بروعة الحب مثلى .

قالت بابتسامة جميلة عذبة :

ـ أنا بالفعل محقة عندما أقول إن أفضل زوج هو الطبيب النفسى ، فهو الوحيد القادر على فهم زوجته ، أحلامها ، طموحاتها ، رغباتها .. يعرف ما تحبه فيفعله ، يستطيع أن يقنعها بأن السعادة لن توجد إلا معه ، يفهم ما الذى تريده قبل أن تتفوه به ، يستطيع أن يجعل حياتها جنة لأنه سيعرف كيف تتخيل هى الجنة .

قلت لها بخبث :

ـ ولكن لا تنسى أنه إذا انقلب يومًا سيصبح أسوأ زوج .. لأنه سيعرف نقاط ضعف زوجته فيستغلها .. هذا بخلاف أنه طيلة حياتهما سيحللها نفسيًا نهارًا وليلاً .. فى كل موقف تفعله .. ولا يمكنها أن تكذب عليه لأنه سيعرف ذلك حتمًا حينها .. يمكنه باختصار أن يحول حياتها إلى جحيم متى أراد ذلك لأنه سيعرف كيف تتخيل هى الجحيم .. أما إذا كان ملمًا بالتنويم المغناطيسى فتلك هى الطامة الكبرى لأنه بإمكانه أن يجعلها تسير فى الأزقة ليلاً واضعة مقلاة على رأسها معلنة بصوت جهورى أن التتار قادمون .

ـ ما كل هذا ؟ أنت تخيفنى بهذا الحديث .

ـ يا حبيبتى .. أنا أتحدث عن الأطباء النفسيين .. أما أنا ..

ثم أمسكت يديها الرقيقتين ، وتابعت هامسًا برومانسية :

ـ شاعر أميرتى .

صاحت والسعادة تطل من عينيها وأنا لا أصدق أننى مصدر سعادتها هذه :

ـ أنت رائع .. رائع .. أنا لا أتصور الحياة بدونك .

أشعر أنى ملكت الدنيا وأنى أسعد رجل فى العالم عندما أسمع هذه الكلمات العذبة الرقيقة من أجمل مخلوقة على كوكب الأرض .. أما هى فتابعت هامسة :

ـ أتمنى أن أعيش معك طوال العمر .. معك أنت فقط .. ونهجر هذا العالم .

غريبة ! نفس إحساسى ! نفس أمنياتى ! لا يمكن أن يكون فى هذا العالم حبيبان أكثر توافقنا منا .

انتبهت فجأة لما ترتديه .. وجدت أمامى فراشة سوداء أخرى .. لا ترتدى شيئًا لا يحمل اللون الأسود فى طياته ، فسألتها السؤال التقليدى فى مثل هذه الأمور :

ـ من الذى مات ؟

ـ لم يمت أحد مؤخرًا .. لماذا تسأل ؟

ـ هذه الملابس .. اللون الأسود !

ـ آه .. إنها (موضة) هذه الأيام .. ألا تعرف ذلك ؟

غريبة حقًا هذه (الموضة) ! فجأة تقرر سيدات هذا العصر أن (الموضة) لهذا العام هى اللون الأسود .. فيما مضى كان اللون الأسود هو لون الحداد ونعرف أن هذه السيدة حدث لها حادث وفاة لأحد أقاربها مؤخرًا فنذهب لنواسيها ، وبعض السيدات كبيرات السن تراه لون الاحتشام .. أما الآن فهو صيحة هذا العام ، فتخيل معى ـ عزيزى القارئ ـ مدى سوء الفهم الذى يمكن أن يحدث .. نقابل سيدة فى الطريق نعرفها ولكنها ترتدى الأسود وبدلاً من أن نسألها : من الذى مات؟ سنسألها فى استفسار : جنازة أم (موضة)؟ وتخيل معى أيضًا تلك السيدة التى مر عام على وفاة زوجها ، فينصحونها بتغيير الأسود ويخبرونها بأن الحزن فى القلب ، والحى أبقى من الميت ، وأشياء من هذا القبيل ، فتقبل

نصيحتهم وتترك الأسود لتبدأ فى ارتداء ملابس آخر صيحة ، فترتدى ـ تصوروا ـ الأسود مرة أخرى .

ـ « أين ذهبت ؟ لقد شردت بعيدًا .. فيم كنت تفكر ؟ » .

لم أجب سؤالها ولكنى أمسكت يديها ،وقلت :

ـ حبيبتى .. هناك سؤال لم أسأله لك منذ أول لقاء بيننا .

سألتنى متعجبة :

ـ وما هو ؟

قلت لها بهدوء :

ـ ماهو لونك المفضل ؟

★ ★ ★

اليوم : الثلاثاء ٨ يونيو الساعة الخامسة مساءً

المكان : عيادتى .

الجلسة الثانية للسيدة (ماجدة) .. سيدة الأحلام .. الفراشة السوداء .. السيدة التى لا تكف عن رؤية الأحلام .. أحلامها التى لو تحولت إلى أفلام سينمائية ستندرج تحت قائمة (أفلام الكوارث) .

لم أتوقع مجيئها هذا اليوم .. لقد أخبرتنى فى نهاية الجلسة السابقة أنها أصبحت على يقين بأن الطب النفسى وهم .. فكيف ستحضر جلسة أخرى ؟ ربما زوجها هو الذى أقنعها بالحضور .. ربما ..

كان أول ما قالته لى بمجرد استرخائها على الشيزلونج :

ـ لقد تحقق الحلم .

إذن لم يكن زوجها هو السبب .. لقد جاءت لتخبرنى بأنها كانت على حق .. قلت :

ـ أى حلم ؟ إن أحلامك كثيرة يا سيدتى لدرجة أنى أعتقد أن فلسفتك فى الحياة هى : هل نحن نحلم من أجل أن نعيش .. أم نعيش من أجل أن نحلم ؟

صاحت غاضبة :

ـ دكتور .. أنا لا أمزح .. لقد تحقق حلم جارتى (حسناء) .

ـ هل جارتك أيضًا تحلم ؟! إنها عدوى إذن .

لا أعرف لماذ أحببت إثارة غضبها ، ولكنها لم تنتبه إلى ذلك بدليل أنها قالت :

ـ لست أقصد هذا ، أنا أقصد حلمى الذى رأيت فيه بيت جارتى (حسناء) .

ـ آه .. ذلك الحلم الذى به مطبخ ومقلاة احترق ما فيها من بيض ومنزل جارتك .

ـ نعم .. لقد تحقق تمامًا .

ـ وهل وجدتم المقلاة محترقة ؟

زفرت فى غضب ، ثم قالت :

ـ أقصد بقولى إن الحلم قد تحقق أن الشقة قد احترقت تمامًا ..

لقد كان حريقًا مروعًا كتبت عنه الجرائد .

فتحت حقيبتها وأخرجت قصاصة من جريدة تحمل تاريخ اليوم ثم أعطتها لى .

كان خبرًا عن حريق منزل ، ويتوسط الخبر صورة إلى ما آلت إليه الشقة بعد الحريق .. والدمار الذى سببته النيران .. سألتنى كعادتها لتستفزنى :

ـ هل تستطيع القراءة ؟

فأجبتها حتى لا تسألنى هذا السؤال المستفز مرة أخرى :

ـ نعم .. ولقد قرأته .. تفضلى .

وأعطيتها القصاصة لتعيدها إلى حقيبتها ، ولكنها قالت :

ـ اقرأ الخبر كله .. وليس العنوان فقط .

ـ لقد قرأت الخبر كله منذ دهر .

اندهشت بشدة .. هذا يمكن ملاحظته بسهولة .. على أية حال أخذت القصاصة وأعادتها إلى حقيبتها .. أعتقد أنها تحتفظ فى منزلها بألبوم تضع فيه كل أخبار الحوادث التى حلمت بها ، وربما تطلق عليه اسم على غرار : (ألبوم أحلامى تتحقق) أو (كوارث حلمت بها) أو أى شى من هذا القبيل .. سألتها باهتمام :

ـ أعتقد أن الخسائر ليست كبيرة .. الحمد لله .

ـ أنت لا تعرف ثمن الأشياء التى احترقت .. إن الخسائر المالية كبيرة جداً ولكنها نجت هى وأولادها من النار والحمد لله . أما الخسائر النفسية بالنسبة لى فإنها فادحة تزداد يومًا بعد يوم .. إن كل يوم يبدأ يعنى بالنسبة لى حدوث كارثة .. والنعيم هو أن أعيش يومًا لا تحدث فيه كارثة حلمت بها .

هدأت من روعها ، وقلت بهدوء :

ـ يا سيدتى .. أن تحترق شقة جارتك لا يعنى بالضرورة أن حلمك تحقق .

ـ لا يمكنك أن تقول هذه المرة إن (الحلم قد يكون جاء بعد الحادث) لأنى قصصته لك فى الجلسة السابقة .

ـ لن أقول ذلك .

ـ الحمد لله أنك تأكدت من هذه النقطة .

ـ ولكنى سأقول إنها صدفة .

ـ وحلم سقوط الطائرة التى كان بها والداى ؟

ـ صدفة .

ـ وسيارة عمى التى انقلبت به ؟

ـ صدفة .

ـ وحادث الأتوبيس ؟

ـ صدفة .

ـ ومقتل المهندس ؟

ـ صدفة .

ـ وبقية الأحلام التى رأيتها وتحققت ؟

أجبت بكل ثقة :

ـ صدفة .

قالت لى وكان من السهل ملاحظة الارتجافة التى سرت فى جسدها كله فهزته بشدة وكأنها تعرضت لصدمة كهربية :

ـ أنت لا تتخيل مقدار المأساة التى أحياها .. مهما قلت ومهما شرحت لن أستطيع وصف الجحيم الذى أعيشه ؛ لذا لن تستطيع أن تشعر بما أشعر به .. إنك تعيش حياتك بطريقة طبيعية جداً .. أناس يأتون تصادقهم .. أناس يذهبون تودعهم .. تحضر جنازاتهم .. وينتهى الأمر وتعود إلى حياتك مرة أخرى وكأن شيئًا لم يكن .

صمتت قليلاً ، ثم عادت لتكمل رثاء نفسها :

ـ أما أنا فأشعر أننى مسئولة عن الذين ذهبوا .. أشعر بتأنيب الضمير ؛ لأنه كان بإمكانى مساعدتهم ولم أفعل .. وإذا فعلت ونصحتهم لم يغير هذا من الأمر شيئًا ؛ لأن ما رأيته فى الحلم حدث حرفيًا .. إن الحذر لا يمنع القدر .. فأشعر أننى كنت السبب .. أشعر أننى لو لم أحلم بذلك لما حدث لهم شىء .. حتى الذين أقابلهم لأول مرة .. وأتمنى مصادقتهم .. أخشى أن أفعل حتى لا أحلم بحدوث كارثة لهم .. وأكون سببًا فى موتهم .. إن هذا جزء من مأساتى ..

أما الجزء الآخر لا يتعلق بالناس .. إنه يتعلق بالكوابيس نفسها .. هل ترى كوابيس يا دكتور ؟

ـ أحيانًا .

ـ هل جربت الكوابيس المزعجة المتكررة ؟ هل حلمت يومًا بكوارث تحدث لأقاربك .. لأعز الناس لديك ؟ هل شعرت يومًا أنك عاجز عن إنقاذهم ؟ تخيل هذا هو (الروتين) اليومى لحياتى .. أرى كوابيس مروعة .. أسوأ كوابيس يمكن تخيلها .. أرى أناسًا يموتون .. أنا لاأحلم بديناصورات أو كائنات فضائية تحتل الأرض .. أنا أحلم بمثل ما يأتى فى صفحة الحوادث يوميًا .

ـ حسنًا .. اهدئى .. أنا أقدر معاناتك .

ـ أحقًا يا دكتور ؟

ـ نعم بالتأكيد .. فأنا طبيب نفسى .. أشعر بما يعانيه الآخرون دون أن يتفوهوا به .

ـ أتمنى ذلك .

قمت لأحضر بعض الأوراق ، ثم عدت إلى مكانى و ..

ـ سنلعب الآن لعبة بسيطة .. عمادها الأساسى هو الصراحة والتلقائية .. سأذكر كلمة فتردى بأول كلمة ترد إلى ذهنك .. اتفقنا .. أهم شىء كما قلت ، هو ..

ـ الصراحة والتلقائية .

ـ بالضبط .. والآن خذى نفسًا عميقًا .. جيد .. أخرجيه الآن .. استرخى تمامًا .. سأبدأ الآن .

قمت بترتيب الأوراق ، ثم بدأت أقرأ أول كلمة (طبعًا قد أضيف بعض الكلمات أثناء الحديث) :

ـ الأحلام ؟

ـ كوابيس .

ـ الكوابيس ؟

ـ كوارث .

ـ النوم ؟

ـ جحيم .

ـ الاستيقاظ ؟

ـ أمل .

ـ الحياة ؟

ـ جحيم .

ـ الموت ؟

ـ راحة .

ـ الجيران ؟

ـ مساكين .

ـ الأصدقاء ؟

ـ قليلون .
ـ الأقارب ؟
ـ ماتوا .. أقصد معظمهم .
ـ الزوج ؟
ـ حنون .
ـ الزواج ؟
ـ أمان .
ـ الحب ؟
ـ موجود .
ـ الكراهية ؟
ـ كابوس .
ـ الهواية ؟
ـ تليفزيون .
ـ أفلام ؟
ـ رعب .
ـ برامج ؟
ـ المرأة .
ـ المسلسلات ؟
ـ مملة .

ـ الهدوء ؟
ـ جميل .
ـ الآخرون ؟
ـ فيلم .
ـ أقصد .. الناس ؟
ـ يموتون .
ـ الخلود .
ـ كابوس .. أنت طبعًا تقصد الخلود فى الدنيا ؟

لم أرد وأكملت سرد الكلمات بنفس الطريقة حتى وصلت إلى نهاية الأوراق .. طبعًا لن أكتب لكم كل ما جاء فى الأوراق .. إن المساحة هنا لا تكفى .

سألتنى مازحة :

ـ من الذى ربح فى هذه اللعبة ؟ أنا أم أنت ؟

اكتفيت بابتسامة ولم أعلق ، فسألتنى :

ـ هل هناك لعبة أخرى ؟
ـ نعم .

ثم نهضت لأحضر تلك (اللعبة الأخرى) .. كانت عبارة عن ورقة بيضاء عليها بقع سوداء متناثرة فى أماكن متفرقة .. طبعًا سمعتم عن اختبار رورشاخ (Rorschach) ؟

عرضت الورقة على السيدة (ماجدة) و ..

ـ أريد منك أن تنظرى إلى كل بقعة وتخبرينى بما ترينه فيها .. بما تذكرك .. ما الذى ترينه فى كل بقعة .. أخبرينى بانطباعاتك .. اتفقنا ؟

قبضت على الورقة ونظرت إليها ملياً ،ثم قالت :

ـ تذكرنى باللون الأسود .

ـ طبعًا .. لابد أن تذكرك باللون الأسود .. لأن الحبر المستخدم هو الأسود .

كان خطأ منى استخدام هذا اللون معها .. لقد نسيت تمامًا عشقها له .. أخشى أن تنشد قصيدة أخرى على مسامعى عن هذا اللون .. لماذا لم أستخدم اللون الأزرق ؟

قالت وهى تتأمل اللون منبهرة :

ـ أرأيت ؟ لا يمكننا الاستغناء عن اللون الأسود .. هذا لأن اللون الأسود يعتبـ .

قاطعتها قائلاً :

ـ دعينا من اللون الآن .. وتخيلى أنه أى لون آخر .. المهم أن تتأملى هذه البقع جيدًا وتخبرينى بالأثر الذى أحدثته فيك .. ما الذى تعبر عنه كل بقعة ؟ ما الذى ورد إلى ذهنك عندما وقع بصرك على كل واحدة منها ؟

أخذت الورقة ورفعتها فى السماء وتأملتها جيدًا ..

توقعت أن تعطينى الورقة فى أى لحظة .. لكنها لم تفعل .. فانتظرت .. وانتظرت .

لقد استغرق تأملها وقتًا أطول من اللازم جعلتنى أشعر أنها تتأمل لوحة فنية أو تصميمًا لفيلا .. قلت لها بعد نفاد صبرى :

ـ « مساء الخير » .

التفتت إلىّ .. الحمد لله .. اعتقدت للحظات أنها قد ماتت وهى ممسكة بالورقة ..

قالت لى وهى تلوح بالورقة :

ـ إنها رائعة .

ـ إلى هذا الحد ؟

ـ إنها ملخص حياتى .

ـ حقًا ؟

ـ هل يمكننى الاحتفاظ بها يا دكتور ؟

ـ يمكنك .. ولكن أخبرينى أولاً : ما الذى رأيته فى كل بقعة من هذه البقع ؟

بعد الانتهاء من اختبار البقع وبعض الاختبارات الأخرى .. سألتها بدافع الفضول :

ـ ماهو آخر حلم حلمته ؟

ـ لماذا ؟

ـ فقط للمعرفة .

ـ للمعرفة فقط ؟! أم أنك ستحاول منع حدوث الكارثة ؟

ـ فى الواقع لم أفكر فى هذا على الإطلاق .

لو أننى فكرت فى هذا فسيعنى ذلك حتمًا أننى أؤمن بأن أحلامها تتحقق .. وأن لديها هذه الحاسة التى تجعلها على علم بأشياء تحدث فى المستقبل .

ولنفترض أننى اقتنعت بما تقوله فهل سأقوم بدور الفارس الليلى المغوار الذى ينهض ليمنع وقوع الحوادث لعلمه بأمرها .. أعتقد أن هذه التيمة حرقتها الأفلام والمسلسلات الأمريكية بدءًا من النبوءات .. نهاية بآلة الزمن .. ولو فعلت فلن أتفرغ حتمًا لعيادتى ومرضاى فلست مؤهلا للقيام بدورين مثلما فعلها (سوبر مان) ، وكان صحفيًا و (باتمان) ، وكان رجل أعمال .. وآخرون من بقية القائمة التى لا تنتهى .. كانوا يعيشون حياتهم بشخصيتين ـ نحن لا نتحدث هنا عن انفصام الشخصية ـ وهما الشخصية العادية المسالمة والتى يراها الجميع والشخصية الأخرى الخفية الأسطورية .. هذا لأنهم أبطال قصص مصورة .. أما هذه ـ لو أنك قد لاحظت ذلك ـ ليست قصة مصورة .. لذا لا يمكننى القيام بشخصيتين .. فلأترك الطب النفسى وأتفرغ لحياة البطولة ..

وتتحول السلسلة من (حالات خاصة) إلى (أحلام خاصة) .. وليكن اسمى (دريمز مان Dreams Man) أو (نايتميرز مان Nightmares Man) وصدقونى لن يأتى اليوم الذى لا أجد فيه عملاً لأن هذه السيدة لا تكف عن رؤية الأحلام .

إنها ترى الأحلام كأنها تأكل أو تشرب .. تستطيع أن تثبت للعلماء أن الفرق بين الإنسان والحيوان هو أن الإنسان كائن يحلم .. لذا أعتقد أن أغنيتها المفضلة هى: (لو بطلنا نحلم نموت) .. أغنية ومبدأ وفلسفة حياة .

قالت لى بهدوء :

ـ هل تريد حقًا أن أخبرك بما رأيته فى حلمى الأخير ؟

ـ أعتقد أن سؤالى يؤكد رغبتى فى ذلك .

ـ هل يعنى هذا أنك اقتنعت بأن أحلامى تتحقق ؟

ـ ليس بالضرورة .

يبدو أن ردى لم يعجبها .. توقعت ذلك ولكنى لم أتوقع أن تقول ..

ـ على أية حال .. لقد حلمت بأن الصحفى الكبير (فايز علوى) مات .

ـ ماذا ؟

★ ★ ★

7 ـ أخبار لم تنشر بعد !

نفس الجلسة ..

ـ « الصحفى الكبير (فايز علوى) مات » .

قالت السيدة (ماجدة) لى كأنها تقذف قنبلة نووية فى وجهى .. إنها لا تعلن عن حلم بل تعلن عن خبر مؤكد سأقرؤه قريبًا .

من هو (فايز علوى) ؟ إنه صحفى كبير .. أديب أيضًا .. إن (فايز علوى) يعتبر علمًا من أعلام الصحافة .. أنا من أشد المعجبين به .. سألتها منزعجًا :

ـ متى حلمت بهذا الحلم ؟ وهل تحقق أم ليس بعد ؟

ـ إنه لم يمت بعد .

ـ الحمد لله .

ـ ولكنه سيموت قريبًا .. قريبًا جدًا .. طالما أنى حلمت بذلك فإن نهايته صارت قريبة أكثر من اللازم .. للأسف .

كلماتها مخيفة .. هى الآن تخبرنى بأشياء ستحدث .. أخبار لم تنشر بعد .. هذا الحديث مقلق .. ماذا لو أنه حق يـ .. ؟!

ماذا لو أن أحلامها فعلاً .. ؟ ما الذى يمكن أن أفعله ؟ هل الأمر يستحق أن .. ؟

علامات استفهام كثيرة تزاحمت داخل عقلى .

انتهت الجلسة بعد سماعى أحلامًا أخرى تحققت لها .. شعرت أننى أجلس أمام (نوستراداموس Nostradamus) .. صاحب كتاب

النبوءات الشهير (قرون) .. لدرجة جعلتنى أتوقع أنها ستعلن فى أى لحظة عن بدء تدوين أحلامها فى كتاب وليكن (عقود) .

بعد نهاية الجلسة وتحديد يوم السبت كموعد للجلسة القادمة ، جلست أنا وزوجها على انفراد كالعادة .. طبعًا هى تقبل هذا الوضع لأنها ليست مريضة بالبارانويا (Paranoia) وإلا أصبحت كارثة .. هى ترى أن زوجها يطمئن عليها وأنا بالتالى أطمئنه .. أما لو أنها تعانى من (البارانويا) فسترى أننا نخطط لقتلها على الأقل .

سألت زوجها :

ـ أين كنتم وقت حدوث الحريق ؟

ـ فى بيتنا .. هل أخبرتك عن الحلم ؟

ـ بالطبع .. إنها تقضى نصف الوقت فى سرد أحلامها والنصف الآخر فى تأكيد حدوثها ، أعتقد أحيانًا أنها فرحة بهذه (الحاسة السادسة) ـ كما تسميها ـ أكثر من خوفها منها .. تخيل معى أنك تعرف ما سيحدث قبل أن يحدث ، ولكن .. هل لاحظت شيئًا أول أمس ؟

ـ ماذا تعنى ؟

ـ لقد طلبت منك مراقبتها .. أليس كذلك ؟

ـ بلى .

ـ هل لاحظت خروجها ليلة أمس .. أى ليلة الحريق ؟

ـ لا .. ولكن لماذا هذا السؤال ؟

لم أرد على سؤاله وشرد عقلى وكلمات السيدة (ماجدة) تتردد فى أذنى ..

★ ★ ★

ـ إن لدى شعورًا بأننى لو لم أحلم لما حدثت هذه الكوارث .. أى أنها حدثت لأننى حلمت بها .

★ ★ ★

هل تذكر ـ عزيزى القارئ ـ المثال الذى ضربته من قبل .. صديقك الذى حلمت به يسقط من شجرة .. ويأتى اليوم الذى يتسلق فيه صديقك شجرة فيراك فيرفع يده لك فيسقط من الشجرة .. هل تذكرته الآن ؟ حسنًا .. انسه تمامًا .. فربما ليس هو المثال المناسب لأحلام الفراشة السوداء .

ربما المثال المناسب هو .. أنت حلمت بصديقك يسقط من شجرة .. وفى يوم تجده يتسلق شجرة فتذهب إليه لتدفعه فيسقط من الشجرة .. ويتحقق الحلم .

وهذا يعنى أنك لو لم تحلم بهذا الحلم لما ذهبت إليه لتنفذه ولما سقط من الشجرة .

نتساءل هنا : هل كان السقوط حتميًا وأنت مجرد شاهد ليس لك أى دور .. أم أنه كان لابد أن تنفذه بنفسك حتى يتحقق الحلم وهذا يعنى أن رؤيتك للحلم ساهمت فى تنفيذه ؟

★ ★ ★

سألنى زوجها بدهشة وقد بدت عليه علامات التفكير :

ـ هل تظن أنها الفاعلة ؟

ـ ربما .. ألم تقل التحريات إن الحريق حدث بفعل فاعل ؟

ـ وكيف عرفت هذا ؟

ـ من الخبر الذى تحتفظ به فى حقيبتها .

فنظر إلى السقف فى شرود واستمر هكذا لدقائق عديدة .. يبدو أنه يدير الأمر فى رأسه من جميع الوجوه .. ثم طال الوقت .. يبدو أن الوجوه كثيرة .. فى النهاية سألنى :

ـ ولكن ماذا ؟

ـ لتثبت للجميع أن أحلامها تتحقق .

ـ ولكن هذا احتمال بعيد .. بعيد جداً .

ـ أترى ذلك ؟ على أى حال .. نحن الآن فى مرحلة فرض الفروض .. لم نصل بعد لمرحلة اختيار الاحتمال الوحيد المنطقى أو مرحلة التأكد منه .

ـ حسنًا يا دكتور .. ولكن هل ترى أنى حالتها تتحسن ؟

ـ لا .. بل تزداد سوءًا بمرور الوقت .. للأسف .

ـ وهل هذا يجعلك تشك أنها الفاعلة ؟!

ـ أنت لا تعرف شيئًا عن النفس البشرية .. إنها أعقد من أن نفهمها تمامًا على مر الزمان .. إن كل يوم يمر على العالم تظهر به

حالات حديثة وأمراض نفسية حديثة لم نكن نعلم بوجودها .. وعقد نفسية وميول واتجاهات وعادات وطقوس لا ندرى عنها شيئًا ، بل إن هناك حالات تموت ونظل عاجزين عن إيجاد تفسير لها .

يبدو أننى قد أقنعته بحديثى لأنه ظل صامتًا ، فسألته :

ـ هل نفذت ما نصحتك به من نزهات ورحلات و .. و .. إلخ .

ـ فى الواقع لم أستطع أن أترك العمل .. فلو أنك مدير شركة مثلى فلن ترتاح يومًا واحدًا .. ولست ثريا للدرجة التى تجعلنى أجلس فى المنزل معتمدًا على رصيد هائل فى البنك؛ لذا لابد أن أتابع العمل بنفسى .

ـ حسنًا .. أقدر موقفك ، ولكن على الأقل لا تجعلها تشاهد أفلامًا مرعبة أو تراجيدية .. فلتشاهد مسرحيات ، أفلامًا كوميدية .. وأتمنى أن تشجعها على ترك اللون الأسود .

★ ★ ★

اليوم : الخميس ١٠ يونيو الساعة الرابعة مساءً

المكان : كازينو على النيل .

خطيبتى (نادين) ..

لو كتبت فى جمالها دواوين غزل فلن أوفيها قدرها .. إنها ليست جميلة .. إنها الجمال ذاته .. لو سألنى أحد : ماهو الجمال؟ لأجبت على الفور وبدون لحظة تردد :

إن الجمال هو (نادين) .. تعريف جامع مانع .

خطيبتى (نادين) .

إنها قصيدة غزل مرسومة بقطرات الندى .. إنها أنشودة حب عذبة يتغناها قلبان عاشقان .. إنها لوحة تنبض بالحياة مكتوبة بترانيم العشق .. إنها سمر فى ليلة ابتهج لحسنها القمر .. إنها ابتسامة بريئة على وجه طفل يلهو .. إنها عبير زهرة برية من بستان الإلهام .

نظرت إلى عينى خطيبتى ، لن أملَّ من التطلع إليهما وتأمُّل السحر الكامن فيهما .. نظرت إلى وجهها البرىء فحسدت نفسى .. هل هذه الملاك ستصبح فى يوم ما زوجتى وأم أولادى ، وتطلب منى «مصروف البيت» فلا تترك فى جيبى شيئًا لأن كل شىء ارتفع ثمنه كالعادة .. يا سلام .. ما أجمل الأحلام ! قالت لى بصوتها العذب :

ـ لقد حلمت بالأمس حلمًا غريبًا .. أود أن تفسره لى ، خير اللهم اجعله خيرًا .. لقد رأيت سـ ..

ـ ما الحكاية ؟! هل الأحلام أصبحت صيحة هذه الأيام ؟ أم أننى غيرت مهنتى من طبيب نفسى إلى مفسر أحلام دون أن أعلم؟

ـ لماذا تقول هذا ؟ هل أغضبتك ؟

أمسكت يدها فشعرت كم أن يدى خشنة جافة مقارنة بيدها الرقيقة لدرجة أنى خشيت أن أهشمها بمجرد أن ألمسها بأصابعى ، ثم قلت هامسًا :

ـ لا .. ولا يمكن أن أغضب منك أبدًا .. ولكن يبدو أننى عصبى هذه الأيام والسبب هو الحالة الخاصة التى أعالجها هذه الأيام .

ـ حالة خاصة !

ـ نعم .. حالة خاصة جدًا .. حالة تهيم عشقًا بأن تقص أحلامها .. لأنها تعتقد أنها تتحقق .. فأقضى الجلسة كلها أستمع لأحلامها .

رمقتنى بنظرة خاصة .. نظرة فتاة تتفرس فى ملامح خطيبها بشك .. ثم سألت فى غيرة واضحة :

ـ هل هذه الحالة رجل أم فتاة ؟

أدركت على الفور ما ترمى إليه بسؤالها؛ فأردت أن أثير غيرتها لذا أجبت بـ :

ـ أنثى .

فهمت أميرتى ما أردت أن ألمح إليه .. لقد أثارت الكلمة غيرتها ، فسألت باهتمام :

ـ هل هى جميلة ؟

لا أعرف لماذا أحببت أن أثير غيرتها أكثر ؛ فأجبت :

ـ جدًا .. جدًا .

رمقتنى مرة أخرى بنفس النظرة ، وظهرت عليها علامات الحنق والغضب لتزيدها جمالاً .. هذه الفتاة لا تترك مجالاً لا تبهرنى

فيه بجمالها وبتلقائية شديدة غير عامدة .. لدرجة تجعلنى أخشى أن يأتى اليوم الذى أغلق فيه العيادة لأجلس أمامها لساعات طوال لأتأملها .. سألتنى بغيظ :

ـ هل هى أجمل منى ؟

ـ طبعًا .. لا .

تنفست الصعداء بعد سماعها هذه الإجابة التى خرجت بتلقائية شديدة ، ولكن ..

ـ هل تكذب علىّ ؟

ـ لا .

نظرت فى عينى محاولة أن تعرف الحقيقة .. ولكن هيهات .. مهما حاولت يا أميرتى لن تعرفى من وجهى شيئًا ، أنت تنظرين إلى طبيب نفسى محترف يجيد التحكم فى انفعالات وجهه لذا لن تتوصلى إلى شىء عن طريق التحديق فى عينى ، ولعمرى هذا يسعدى كثيرًا ـ أقصد التحديق طبعًا ـ لو أنك لا تعلمين .

سألتنى مترددة :

ـ لماذا أحببتنى ؟ ما الذى جذبك إلىّ ؟

هذا السؤال خطير جدًا ، وقد أجيب بإجابة لاتعجبها .. فهناك فتيات يردن الإجابة عليه بالجمال وآخرون الذكاء .. وآخرون الأصل الطيب وحسن الخلق .. وأنا حتى الآن لا أعرف الإجابة التى تريدها أميرتى؛ لذا لابد من بعض الدبلوماسية :

ـ لقد وجدت فيك كل ما تمنيته فى فتاة أحلامى .

ـ ألا وهو ...

يبدو أنها مصممة ، فقلت :

ـ أنا لم أقم باختيارك .. إن قلبى هو الذى اختارك فاسأليه .

يبدو أن هذه الإجابة أيضًا لم ترضها؛ لأنها عادت تسأل فى إلحاح :

ـ أجبنى بصراحة .. ما الذى أعجبك فىّ ؟

بالرغم من ثقتى التامة فى عقل خطيبتى الراجح وفى حبنا القوى الذى لا يمكن أن تهزه إجابة غير موفقة إلا أننى لم أرد المجازفة وآثرت السلامة .

وتفاديا لحدوث أى شىء أردت أن أغير دفة الحوار ، فلم أجد شيئًا أقوله سوى :

ـ لقد نسينا موضوعنا الرئيسى .

سألت باهتمام مستفسرة .

ـ وما هو ؟

ـ بم كنت تحلمين بالأمس ؟

وابتلعت أميرتى الطعم بدليل أنها أجابت قائلة :

ـ نعم .. لقد كان حلمًا غريبًا .. لقد رأيت سـ ..

★ ★ ★

اليوم : السبت ١٢ يونيو الساعة الخامسة مساءً

المكان : عيادتى .

الجلسة الثالثة للسيدة (ماجدة) .. أتوقع أن أقضيها كالعادة فى الاستماع إلى أحلامها وكيفية تحققها .

إن الأحلام هى البوابة السرية لمعرفة ما بداخل النفس البشرية ولا تظهره فى سلوكها أمام الآخرين .

إنها كالسطور المكتوبة بالحبر السرى ـ إن جاز التشبيه ـ فلو فرضنا أن النفس البشرية هى الورقة ، فإن ما كتب بالحبر العادى هو ما يظهر من سلوك أما ما كتب بالحبر السرى فهو الأهم .. هو الرغبات الدفينة .. هو العقل الباطن .. هو الذى من أجله كتبت الرسالة .. أعنى .. هو الذى من أجل إرضائه جاء السلوك .

ولهذا من عادتى أن أسأل المرضى عن أحلامهم حتى أعرف رغباتهم الدفينة المكبوتة .. ميولهم الخفية .. مخاوفهم الأزلية .. ولكن حالة السيدة (ماجدة) تختلف .. إن أحلامها لاتحتاج إلى تحليل .. ولو افترضنا عكس ذلك فهذا يعنى أنها تكره جارتها وتريد أن يحترق منزلها .. وتكره أيضًا الصحفى الكبير (فايز علوى) .. قد يمكننا افتراض ذلك .. ولكن هل سنفترض أيضًا أنها كانت تكره والديها وعمها ؟

الإجابة ستكون لا ؛ لذا أنا أرى أن أحلامها عادية .. أعنى أنها ليست تفريغًا لرغبات مكبوتة .. إنها كوابيس .. وقد تحققت بالصدفة .. هذا ما أراه حتى الآن .

استرخت السيدة (ماجدة) على الشيزلونج وهدأت تمامًا .. نظرت إلى وجهى لمدة طويلة ولم تنطق بشىء ، فسألتها :

ـ كيف حالك ؟

لم ترد .. يبدو أنا تريد أن تقول شيئًا ما وتتردد فى قوله ، فشجعتها قائلا :

ـ هل هناك شىء تودين إخبارى به ؟

نظرت إلى وجههى مرة أخرى .. كانت تتأملنى بطريقة عجيبة وكأنها ترانى لأول مرة أو أنها تتأمل لوحة فنية .. قلت لها :

ـ لماذا تحدقين فى هكذا ؟ هل ترينني لأول مرة ؟

أبعدت عينيها ، فقلت لها :

ـ سنلعب اليوم لعبة بسيطة .

ـ وما هى ؟

ـ سأسألك بعض الأسئلة وأريد منك أن تجيبى عنها بـ (نعم) أو (لا) .. أو (أحيانًا) .. أهم شىء عند الإجابة هو الصدق والتلقائية .

ـ أعرف يا دكتور .. ابدأ على الفور .

ـ هل أنت مستعدة ؟

ـ نعم .. تفضل .

ـ حسنًا .

ثم بدأت أسألها الأسئلة المدونة أمامى فى الأوراق التى سهرت الليلة الماضية من أجل إعدادها :

ـ تنامين مدد طويلة ؟

ـ أحيانًا .

ـ تنامين نهارًا ؟

ـ لا .

ـ كل أحلامك مفزعة ؟

ـ نعم .

ـ كل ليلة تحلمين ؟

ـ لا .

ـ تحلمين أحلامًا سعيدة ؟

ـ لا .

ـ تتحقق كل أحلامك ؟

ـ نعم .

ـ تسعدين عندما تجدين أحلامك تتحقق ؟

ـ لا .

ـ هل تتمنين أن لا تتحقق أحلامك ؟

ـ نعم .

ـ هل تحبين أن تحلمى ؟

ـ لا .

ـ هل تحبين قراءة أخبار الحوادث والجرائم ؟

ـ أحيانًا .

ـ هل تحبين رؤية الحوادث فى الأفلام ؟

ـ نعم .

ـ هل تحبين رؤية الحوادث فى الواقع ؟

ـ لا .

ولكنى شعرت أنها تراجع نفسها فانتظرت ، ولكنها كررت ما قالته :

ـ لا .

ثم أكملت أنا بقية الأسئلة التى ـ كما أعتقد ـ لا تهم القارئ كثيرًا إلا إذا كان دارسًا لعلم النفس أو متعطشًا لدراسته .

وبعد أن أجابت على جميع الأسئلة قالت مبتسمة وقد عادت تتأملنى من جديد :

ـ أنت وسيم جدًا يا دكتور .

عندما تكون طبيبًا نفسيًا تذكر ذلك دائمًا : توقع أى شىء يمكن أن تسمعه من مرضاك .. يمكن أن يمدحوك فى أى لحظة أو ينتقدوك فى أى لحظة .

أكملت السيدة (ماجدة) قائلة :

ـ إن الحياة جميلة .. ولكنها فى نفس الوقت قصيرة .. أكثر من اللازم .

كلماتها ذكرتنى بوالد أحد أصدقائى عندما شعر أنه سيموت بعد مرضه الطويل ، فقال : أبنائى .. أعزائى .. كلكم أبنائى .. كلكم أحبائى .. الحياة حلوة .. الحياة جميلة .. سأترككم وأرحل .. إن أجلى قد حان .. إن الحياة جميلة ولكنها أقصر من أن نحقق فيها كل أحلامنا ، ثم نطق الشهادتين وصعدت روحه إلى بارئها عن عمر يناهز التسعين .. إن مثل هذه الجمل يجب أن تقال قبل الموت وكأنها تأشيرة الرحيل .

هل نستنتج من ذلك أن السيدة (ماجدة) قررت الانتحار لتتخلص من الكوابيس ؟

إن الانتحار كفر .. ولا يمكن أن يكون أبدًا حلاً ، بالرغم من كونه متوقعًا لحالتها ولكن لا يمكننا أن نعالج المشكلة بخطيئة ؛ لذا من واجبى كطبيبها النفسى .. ولكن ..

ربما هى لا تزعم الانتحار ..

ربما تكون الحكاية أنها رأت موتها فى أحد أحلامها فجاءت اليوم لتخبرنى أنها حلمت بموتها .. وبالتفصيل كما فعلت فى الأحلام السابق .. لو أن هذا صحيح فهو حلم مرعب .. ولو أنها ماتت بالفعل كما رأت فى الحلم سيكون شيئًا مرعبًا بالتأكيد .

ولكن الأكثر إرعابًا أن تزورنى بعدها لترينى خبر وفاتها لتثبت لى أن أحلامها تتحقق كالعادة ، فأنا أعرف مدى إصرارها على إقناعى .

وقبل أن أسألها عن الـ.. فوجئت بها تقول جملة صدمتنى بشدة :

ـ إن الحياة ستكون سيئة بعد رحيلك .

رحيلى ..

رحيلى أنا !

★ ★ ★

8 ـ فرصة لا تُمنح للكثير ..

نفس الجلسة ..

رحيلى .. إنها تقصد رحيلى ..

ياله من سوء فهم .. لقد اعتقدت أنها تتحدث عن رحيلها ..

سألتها باهتمام :

ـ ماذا تعنين بالضبط يا سيدتى بهذه العبارات الحكيمة الغامضة ؟

ـ لقد أخبرتك من قبل أن أحلامى تتحقق .. وأنه لم يحدث حتى الآن أن خاب حلم لى ..

ـ آه .. ذكرتنى .. ألم تحضرى معك خبر وفاة الصحفى (فايز علوى) ؟ فأنا أريد أن أقرأه .. لقد أحزننى موته جداً .. وكنت مشغولاً هذه الأيام فلم أتمكن من القراءة عن تفاصيل موته .

قالت وهى ترمقنى بنظرة نارية :

ـ أنت تعلم مثلى تمامًا أنه لم يمت بعد .

ـ الحمد لله أنك تعرفين ذلك .. فلنعد لموضوع أحلامك .. ماذا كنت تقولين عنها منذ قليل ؟

ـ يا دكتور .. إنها مسألة وقت .. أنا متأكدة أنه سيموت .. ولكن ربما تأخر حدوث ذلك قليلاً .. ولكنه سيموت .

ـ هذا شىء مؤكد ، فكلنا سنموت ، أنا يمكننى أن أقسم بأغلظ الأيمان أن فلانًا سيموت .. لأن هذا شىء بديهى .. كل من عليها

فان .. لا مخلوق مخلد .. ما الجديد ؟ ألم أقل لك إنها الصدفة هى التى لعبت دورها معك .

ـ اسمعنى جيدًا .. ربما لن نتقابل ثانية .. إن الصحفى الشهير (فايز علوى) سيموت خلال أيام .. ويمكننى مراهنتك على ذلك ، ولكن الأهم ـ ربما بالنسبة لى على الأقل ـ هو أنى حلمت بـ ...

ثم صمتت .. عدنا مرة أخرى لأسلوب الجمل المبتورة .. فسألتها :

ـ بماذا ؟

ـ لقد حلمت بك يا دكتور .

قلت ساخرًا :

ـ شىء غريب حقًا .. حلمت بى وفوجئت بأنك عندى اليوم .. إن أحلامك تتحقق فعلاً .. كيف لم ألاحظ ذلك من البداية ؟!

قالت بلهجة جادة صارمة :

ـ د. (ياسين) .. أنا لا أمزح .. لقد حلمت بموتك ، وهذا يعنى أنك ستموت قريبًا وإنه لشىء محزن أن تموت .

لأول مرة تخاطبنى بـ (د. ياسين) .. فعلتها فى الجملة التى تخبرنى فيها بموتى .

أشارت إلى الدبلة التى أرتديها ، وقالت مبتسمة :

ـ أرى دبلة فى يدك اليمنى .. كيف لم ألاحظها من قبل ؟! أيعنى هذا أنك ..

ـ نعم .. خطبت فتاة رقيقة مهذبة .. وسنتزوج قريبًا .

ـ للأسف .. لن يتم الزواج .

كتمت غضبى وقلت ضاغطًا على أسنانى :

ـ بإذن الله سيتم .

قالت مبتسمة فى سخرية :

ـ أخشى أنه لن يتم بسبب وفاة العريس .

قلت لها متحديًا :

ـ لن تخيفينى بحديثك هذا .. إذا أراد الله لنا الزواج سنتزوج ولن أضع أحلامك فى حساباتى .

ـ أتعلم يا دكتور .. أنت إنسان رائع ، ولكن بك عيب بسيط جداً جداً ..

ـ وما هو ؟

ـ أنك لا تصدقنى .

ـ حسنًا أنا أيضًا أرى أن عيبك الوحيد هو أنك لا تصدقيننى .. لو تطردى من عقلك فكرة أن أحلامك تتحقق ستعيشين حياة سعيدة .

ـ حسنًا .. دعنا من كل هذا ، فيبدو أننا لن نتفق أبدًا .. ولكن اقبل منى هذه النصيحة .. إذا أردت الزواج من خطيبتك فلتتزوج بسرعة قبل أن يأتيك الموت فلم يتبق فى حياتك إلا القليل ..

ـ لا أحد يمكنه أن يخبرنى بموعد موتى .. وأحلامك ليست نبوءات تتحقق .. يجب أن تفهمى ذلك جيدًا .

ـ أحلامى ربما تستغرق وقتًا لتحققها .. ولكنها تتحقق حرفيًا .. وليس الأسبوع وقتًا طويلاً على حد علمى .

ـ أتعنين أن أحلامك تتحقق فى مدى أسبوع ؟

ـ نعم .. وربما أكثر من ذلك بيوم .. أو يومين .

ـ آه .. أو شهر أو شهرين .. أو عام أو عامين .. أو قرن أو قرنين .

ـ لا .. لن تصل إلى مدى الشهر .. على أى حال لقد حذرتك لكى تستعد للموت ، هذه فرصة لا تمنح للكثير .. أن يعرفوا موعد موتهم .. فلتودع أقاربك ، أصدقاءك .. اكتب وصيتك الآن ، وإذا أردت الزواج فلتتزوج ولكن بأسرع وقت واعلم أنها ستصبح أرملة فى القريب العاجل .

ـ لن أهتم بحديثك هذا .

يبدو أنها انتبهت إلى شىء ما و ..

ـ قلت عن خطيبتك أنها فتاة رقيقة مهذبة ولم تقل إنها جميلة .. أليست جميلة ؟

ـ إنها الجمال بعينه .

ـ هل معك صورة لها .

ترددت قليلاً قبل أن أخرج الصورة من محفظتى وأعطيها لها .. أخذت الصورة منى بلهفة ونظرت إليها مليًا ، ثم قالت مندهشة :

ـ إنها ليست جميلة .. إنها عادية جدًا .

ـ لا تنسى أن هذا رأيك كأنثى فى أنثى أخرى .

ـ إن مرآة الحب عمياء حقًا .. وهذا يعنى أنك تحبها جدًا .. ولكن للأسف .. لن تعيش معها طويلاً .. أو لن تعيش حتى يجمعكما بيت واحد .

ثم أردفت قائلة :

ـ أخبرنى يا دكتور .. هل تحب مهنتك ؟

ـ نعم .

قالت بحسرة :

ـ للأسف .. ستتركها قريبًا .. وسيفقد الطب النفسى أحد أفضل أطبائه .

ـ شكرًا على المجاملة .

ـ أنا لا أجامل يا دكتور .. أنا طبيب ناجح بالفعل ، ولك ماض مشرف ، وكان ينتظرك مستقبل باهر لو طال بك العمر .. قل لى يا دكتور .. ماهو سر نجاحك ؟

ـ حسنًا .. لقد نظرت إلى الطب كرسالة .. هدف حياة .. أن أخفف عن الناس آلامهم ، ولأن هدفى نبيل استطعت بتوفيق من

الله أن أثبت كفاءتى؛ لذا أحمد الله دائمًا على ما وصلت إليه .. وحمدى واستغفارى لربى والرضا بما قسمه الله لى هى أسلحتى فى الحياة لمواجهة مغرياتها ، فلم أسع وراء المال فسعى هو إلىّ .

صفقت بيديها ، وقالت بانبهار :

ـ وصفى لك بأنك طبيب ناجح فقط لا يكفى ، فصفتا التواضع والقناعة كانتا غائبتين عنى .. فى الواقع أنت طبيب مثالى تستحق وسامًا رفيع المستوى .. ولكن للأسف ..

قاطعتها قائلاً :

ـ لا يعلم الغيب إلا الله .. يجب أن تضعى هذه الجملة فى ذهنك دائمًا ، وعندما يحين أجلى فسأموت مرتاح الضمير .

ـ حسنًا .. لقد فعلت ما يمليه علىّ ضميرى وحذرتك .

سألتها وقد بدأت بعض بذور الشك اللعينة تتناثر هنا وهناك بدلاً من أزهار اليقين التى كانت تملأ حديقة صدرى :

ـ وكيف حلمت بموتى ؟

ـ أيعنى هذا أنك بدأت تصدقنى ؟

ـ أنا .. أبدًا .. من قال هذا ! إنه سؤال عابر .. حسنًا .. كيف حلمت بموت الصحفى ؟

نظرت لى نظرة خبيثة وكأنها تخبرنى بتأكدها من لهفتى على معرفة الطريقة التى سأموت بها .. على أى حال أجابت باقتضاب :

ـ بالسم .

ـ سم ؟! هل سأموت بالسم ؟

قالت بخبث :

ـ لقد سألتنى عن الصحفى .

ـ آه .. صحيح .. لقد سألتك عنه .. تقولين إنه سيموت بالسم .. وهل ما زالت هذه الأساليب تستخدم ؟

ـ هذا ما رأيته فى الحلم .. الصحفى سيموت بالسم ، أنا لا أخترع شيئًا .

ـ ماذا رأيت بالضبط ؟

ـ الطباخ .

ـ طباخ أيضًا بموقد وبصل وثوم و .. وأشياء من هذا القبيل .

كان هذا شيئًا طبيعيًا .. إنها سيدة تهوى مشاهدة برامج المرأة ، وتقضى معظم وقتها فى المطبخ تعد وجبات رأتها فى التلفاز ، ورغم ثرائها لا تستعين بأى خادمات سوى للتنظيف والغسيل وخلافه ـ عرفت هذا من زوجها ـ أما المطبخ فإنه مصنعها الخاص الذى تدير وتستعين بما تراه أو تقرؤه .. ولذلك كان من البديهى أن يظهر فى أحلامها طباخ .. إن الأحلام ـ كما ذكرت من قبل ـ تعكس أشياء رأيناها فى الواقع .

قالت بعصبية :

ـ لا .. هذه المرة كان الطباخ يضع السم فى الطعام ويعطيه للصحفى .

ـ حسنًا .. هذه المرة يبدو الحلم واقعيًا إلى حد ما .. لم تقولى مثلاً إن الطباخ وضع الصحفى فى كوب به سم .. ولكن دعينا نتحدث عن أشياء أخرى ، مثلاً .. هل كنت تنامين وحدك وأنت صغيرة ؟

ـ دكتور .. هل تود أن تعرف طريقة موتك ؟

ـ لا .

ـ حسنًا .. ولكن .. ضميرى يلزمنى أن أخبرك بها سواء أردت أن تسمعها أم لا .. إنك ستموت على النحو التالى ..

ثم توقفت .. لا أعرف هل لتلتقط أنفاسها حقًا أم لترى رد فعلى ؟ على أى حال أصغيت بانتباه شديد لما تقوله :

ـ سيأتى لك شىء من أعلى .

سألتها مستفسرًا باهتمام يفوق الحد :

ـ شىء مثل ماذا ؟

لمحت بعينيها أطنانًا من الفضول تملؤنى .. ترجمت إلى كلمات صنعت سؤالى ولحسن الحظ لم تستغل الموقف حتى لا يزداد الأمر تعقيدًا وأجابت على الفور :

ـ حقيقة لا أعرف .. إن كل ما رأيته هو أنك كنت واقفًا ، ثم

أتى لك شىء (من أعلى) .. وانقض عليك وافترسك حتى فارقت الحياة .

إجابة غير شافية .. ولكنها صادقة .. هذا بالفعل ما رأته فى منامها .. ولكن طريقة وصفها للحلم .. والحلم ذاته .. يجعلانى أشعر أن هذا الحلم من النوع الذى يتحقق .

★ ★ ★

انتهت الجلسة وحددت لها يوم الأربعاء كموعد للجلسة القادمة ، فأجابتنى مبتسمة :

ـ إن عشنا .

وفهمت ما ترمى إليه ، فقلت :

ـ بإذن الله .

وكعادتى تحدثت مع زوجها على انفراد ، وكما قلت سابقًا إنها تتقبل هذا طبعًا لأنها ليست حالة (بارانويا) .. إلى آخره .

لم يخبرنى زوجها بأى شىء جديد ، مراقبته لها لم تسفر عن شىء وأشار إلى شعوره بأنها تزداد جنونًا بمرور الوقت .. فى هذه النقطة أتفق معه خاصة عندما ودعتها وذكرتها مرة أخرى بأن الجلسة القادمة ستكون يوم الأربعاء ، فأجابت مبتسمة :

ـ إن كان لنا عمر .

وكأنها سعيدة برحيلى ، وكأنها إنسانة أخرى غير تلك التى كانت ستنهار باكية منذ قليل وهى تخبرنى بأن أجلى قد حان .

ثم قالت وهى تربت على كتفى :

ـ سأفتقدك حقًا .. إنك أعظم إنسان رأيته فى حياتى .

يا نهار ..

تقول هذا أمام زوجها .. أنا أعلم ما تعنيه ولماذا قالته ، ولكن ربما زوجها لا يفهم ما تقصده فربما لم تخبره بالحلم .

حلم موتى .

★ ★ ★

نفس اليوم : السبت ١٢ يونيو .

الساعة الثامنة والنصف مساءً

المكان : عيادتى .

فرغت من آخر الحالات لهذا اليوم ..

أغلقت باب حجرة مكتبى وجلست فى صالة العيادة بعد انصراف الممرض .. جلست أفكر فيما سمعته من السيدة (ماجدة) .. كانت هى أكثر حالة تشغلنى هذه الأيام لأنها بدأت تتعلق بحياتى نفسها .. والسؤال يطرح نفسه فى كل خلية من جسدى : هل سأموت قريبًا ؟

ولم أجد أى جواب يريحنى .

إن التاريخ ممتلئ بمن حلموا وكانت أحلامهم تتحقق وتفسيرها كان يعنى الكثير ، مثل حلم صاحبى السجن وحلم فرعون الرمزى بالبقرات السمان والبقرات العجاف .. إلى آخره .. وقد تكون

السيدة (ماجدة) واحدة من هؤلاء ؟ من الذين يحلمون فتتحقق أحلامهم .

لا أنكر أن السيدة (ماجدة) ليست الحالة الوحيدة التى تقول بأن أحلامها تتحقق ..

ولكنى لم أر مثل هذا الإصرار من قبل .. ربما أرى من هم أكثر منها إصرارًا فى المستقبل ـ وعلى رأيها ـ لو أن هناك مستقبلاً .

لو فرضنا أن أحلامها تتحقق .. فهناك حلم الصحفى لم يتحقق بعد ، وهذا يثبت أن للقاعدة شواذ ..

وربما لن يتحقق حلم موتى أيضًا ..

أشعلت التلفاز الموضوع فى ركن من الصالة لأشاهد نشرة الأخبار وأنسى قليلاً موضوع حلم موتى .

هنا شاهدت الخبر المشئوم المتوقع ..

خبر وفاة الصحفى (فايز علوى) ..

يعلنون عن مؤامرة دبرت من أجل اغتياله لأنه كان قلمًا سليط اللسان ، لا يكف عن الكتابة السياسية الجريئة ..

مع عرض صور له فى مراحل مختلفة وعرض صور له مع شخصيات عربية وعالمية شهيرة ..

والكثير من التفاصيل عن إسهاماته وإنجازاته ..

ومقالاته الجريئة النارية ..

ورحلاته إلى دول العالم ومشاركته فى الكثير من المؤتمرات الدولية .

كل هذه التفاصيل لم تهمنى كثيرًا .. إن ما أثار اهتمامى بشدة هو جزء صغير جداً يتعلق بكيفية موته ..

نعم ..

لقد انتهت حياة القلم بالسم .

آاااااااه .

بالسم .

★ ★ ★

9 ـ فى انتظـار الموت ..

نفس اليوم : السبت ١٢ يونيو

الساعة التاسعة والنصف مساءً المكان : عيادتى

ظللت جالسًا مذهولاً أمام التلفاز .. أحدق فى شاشته .. لم أتحرك قيد أنملة .. لو رآنى أحد حينها لاعتقد أنى توفيت بل أنا نفس اعتقدت أنى توفيت .. فأنا لم أجرب الموت من قبل فربما كان ما أشعر به ـ هكذا فكرت ـ هو الموت .

لا أستطيع أن أصف لك ما شعرت به .. إنه مزيج عجيب من المشاعر تجمعت كلها فى لحظة واحدة .. وتذكرت صديقى الذى وصف لى شعوره فى يوم ما وكان مثل ما شعرت به فى هذه اللحظة وقال حينها إنه استشعار الموت ، ومات بعدها بالفعل بمدة وجيزة .

استشعار الموت .

كان فعلاً مزيجًا عجيبًا من المشاعر .. الرهبة .. الضعف .. الوحدة .. بالإضافة للذهول والحيرة وشعرت أن الصالة تضيق علىَ والإضاءة تخفت وأنى أصبحت وحيدًا في هذا العالم بأسره وشعرت ببرودة تجتاح جسدى حتى عظامى نفسها .

ما كل هذه البرودة ! وبدأ جسدى يرتعد ويرتعد .. ثم تذكرت ما قالته عن حلم موتى فنظرت إلى السقف على الفور كاستجابة طبيعية .. تعرفون السبب بالطبع .

ومنذ سماعى للخبر لم أتحرك إلا وأنا ناظر إلى أعلى ، نظرت إلى السقف كثيرًا لدرجة جعلتنى أحفظ معالمه وأكتشف بعض العيوب به .. لدرجة جعلت رقبتى تئن من هذا الوضع الغريب المؤلم لها وهى التى اعتادت على النظر للأمام أو للأسفل .. صدق من قال: « الذى ينظر لفوق يتعب » ولكن سيأتى الخطر من حين سأتعب .

أغلقت العيادة ونزلت الدرج ناظرًا إلى أعلى ، وصلت إلى البوابة ناظرًا لأعلى .. سرت فى الشارع ناظرًا إلى أعلى .. سقطت فوقى مياه من إحدى الشرفات تفاديتها واستكملت سيرى ناظرًا لأعلى ، كدت أسقط فى بالوعة مجار مفتوحة .. لولا صياح الناس من حولى وتنبيههم لى لسقطت بسهولة .

ركبت سيارتى وقدتها ناظرًا لأعلى فكدت أصطدم بسيارة ، وتذكرت شيئًا مهمًا وهو أنه لا يمكننى قيادة السيارة وأنا ناظر لأعلى .

ماهو هذا الشىء الذى سيأتى من أعلى ؟؟؟

سؤال سيطر على تفكيرى تمامًا .. لقد بدأت أصدق ما تدعيه هذه السيدة من تحقق أحلامها بدليل أننى لم أترك دقيقة تمر دون أن أنظر لأعلى .. نعم .. لقد صدقتها الآن .. إن احتمالات الصدفة زادت عن الحد لدرجة جعلت الصدفة لم تعد صدفة أكثر من كونها قاعدة .. وهناك شىء آخر .. عندما يتعلق الأمر بحياتك ومصيرك فإنك لن تترك أى مجال لحدوث الصدفة .. أليس ذلك ؟

هناك كوبرى فى طريقى إلى المنزل .. لا .. لن أسير بسيارتى فوقه .. فربما تسقط سيارتى من فوقه .. « من أعلى » .. ولكن .. الحلم لم يقل إنى سأسقط « من أعلى » .

إن الحلم يقول إن شيئًا ما سيسقط علىّ « من أعلى » .. وربما يكون هذا الشىء هو الكوبرى .. من يدرى ؟ لن أمرّ من تحت الكوبرى بعد الآن .

وصلت إلى شقتى ناظرًا لأعلى .. ففكرت .. ربما ذلك الشىء ينتظرنى هنا لينقض على من أعلى .. دخلت الشقة بحذر وتأملت سقف الصالة .. هل سيتحقق الحل هنا ؟ تأملت السقف جيدًا .. لا شىء هناك سوى المصباح .. ربما سينفجر .. ياساتر .. هناك أيضًا مروحة .. الله أكبر .. هناك أيضًا عنكبوت .. لا أعتقد أن هذه العناكب الوديعة سامة .. حسنًا لا يوجد شىء آخر فى السقف .. ولكن ..

ربما سيسقط السقف نفسه فوقى .. يالها من ميتة !

وربما .. وربما ..

ألم يكن من الأفضل أن تكون السيدة (ماجدة) أكثر تحديدًا ؟ لماذا حلمى أنا بالذات جاء مشوشًا ؟ ولماذا يأتينى الخطر « من أعلى » ؟ لماذا لم تحلم لى بالسم مثلاً ؟ كنت سأمتنع وقتها عن أى مشروب أو مأكولات خارج البيت ، ولكنى سأدخل حتمًا فى دائرة الشك والخوف من الجميع .. وبهذا أكون عبرت رسميًا بوابة (البارانويا) .. يا إلهى .. أهكذا سيكون مصيرى ؟ أهذه ستكون نهايتى ؟

ومن أدرانى .. ربما أنا أعيش نهايتى بالفعل !

★ ★ ★

نفس اليوم : السبت ١٢ يونيو

الساعة الحادية عشرة والنصف مساءً

المكان : منزلى .

ارتديت منامتى .. وتهيأت للنوم ولكنه لم يأت .. إن الخوف أو البرد أو الألم يمنع الفرد من النوم .. وكان لدى الأول منها ؛ لذا توقعت أن النوم لن يأتى بسهولة ..

أشعلت التلفاز لأقتل الوقت ولأريح عقلى من التفكير .. كان هناك فيلم (يوم الاستقلال Independence Day) .. أهذا ما ينقصنى ؟ كائنات فضائية تأتى « من أعلى » .. فأغير القناة لأجد فيلم (لا أنام) وبعد نصف ساعة من البحث عن أى شىء مسلٍ لم أجد شيئًا .. فلجأت إلى المذياع لأجد أغنية (أم كلثوم) (يا مسهرنى) فاستأنست بها حتى غلب إرهاقى خوفى فجاءنى النوم .. وبمجرد أن داعب النوم جفونى انتهزت الفرصة واتجهت إلى السرير ووجهى لأعلى ، وعيناى مركزتان على السقف .. قرأت سورة الإخلاص والمعوذتين وآية الكرسى مرات عديدة حتى رحت فى نوم عميق .

فى هذه الليلة ـ تصوروا ـ حلمت .. نعم حلمت .. وكأن الحلم جاء ليسلينى عوضًا عن التلفاز .. هل تعلمون بمن حلمت ؟

بالطبع لا .. حسنًا .. لقد حلمت بالطباخ .. نعم يبدو أننى تأثرت كثيرًا بما أسمعه من أحلام السيدة (ماجدة) .. رأيت فى حلمى الطباخ

واقفًا فى المطبخ يطهو وجبة شهية ، ثم اكتشفت بعد ذلك أن مكونات هذه الوجبة هى : أنا والسيدة (ماجدة) والأستاذ (وليد) زوجها .. ورأيته ـ أعنى الطباخ طبعًا ـ يقلب المكونات بعناية فى المقلاة ، ثم يمد يده ليلتقط الأستاذ (وليد) بأصابعه ويتذوقه وكأنه قطعة سجق فى يده ، ثم يهتف معلنًا رأيه :

ـ ملحه زائد .

ثم يمسك السيدة (ماجدة) بين أصابعه و .. سكرها زائد .

ثم يمسك بى ويتذوقنى فى نهم واستمتاع ، ويقول بسعادة :

ـ نكهة ممتازة .

ويشرع فى التهامى كأنى قطعة جاتوه .

هل يمكنك ـ عزيزى القارئ ـ تفسير هذا الحلم ؟ أعتقد لا .. وليس من الضرورى أن يكون لكل حلم تفسير .. هذا ما علمتنى إياه الحياة .

استيقظت فى الصباح .. نعم .. استيقظت .

لم أمت وأنا نائم .. شعرت بالسعادة .. حمدت الله على أنى مازلت حيًا أرزق .

استحممت ثم توضأت وصليت الصبح ، ثم أعددت وجبة الإفطار لنفسى والتهمتها على عجل .. ثم تهيأت للخروج .. أى ببساطة فعلت ما أفعله كل صباح .. ولكن التغيير الوحيد الذى حدث هذا الصباح هو أننى فعلت كل هذا وأنا أتوقع أن يكون الأخير .

صلاتى الأخيرة .. إفطارى الأخير .. وهكذا .

وخرجت من شقتى وأنا ناظر لأعلى

.

★ ★ ★

اليوم : الأحد ١٣ يونيو الساعة الرابعة والنصف مساءً

المكان : كازينو على النيل .

خطيبتى (نادين) .

إنها أجمل من أن أكتب عنها .. فلو كتبت عنها لن أفِ ..

ـ « لماذا نجلس هنا فى هذا الركن ؟ » .

توقفت عن تأملاتى لأصيح بهذه الجملة فجأة ، ثم تابعت قائلاً :

ـ فلنجلس فى الهواء الطلق بالخارج .

واستجابت أميرتى لاقتراحى وانتقلنا إلى الجزء المفتوح من الكازينو ، ثم عدت أستكمل تأملاتى .

خطيبتى (نادين) ..

إنها نبضات قلب ملاك يخفق بالحب .. إنها همسات الـ...

ـ « ولكنك كنت دائمًا تحب تلك المنضدة فى الداخل ، ودائمًا كنا نجلس عليها .. ما الذى حدث ؟ » .

قالت أميرتى هذه العبارة بحنق لتقطع علىَ تأملاتى .

ـ لا شىء إنه نوع من التغيير .

أعتقد أن هناك سببًا حقيقيًا لذلك .

فردت ذراعى ، وقلت بحماس :

ـ ألا ترين أن المنظر هنا جميل وجذاب ؟ وهناك شىء أهم هو : أنه لا يوجد سقف هنا .

سألتنى بحدة :

ـ وما سبب إحضارك لهذه المظلة التى تمسكها طيلة الوقت ولم تتركها للحظة .. ليس الجو حارًا أو ممطرًا .. ألا ترى هذا ؟

معها حق .. إن الجو ليس حارًا أو ممطرًا .. ولكن .. من قال إننى أحضرت المظلة لهذه الأسباب ؟ سألتها :

ـ هل كانت المظلة مفتوحة طيلة الوقت ؟

ـ نعم .. وظللت تضعها فوق رأسك ونحن بالداخل وكأنها تحميك من مطر خفى لا أراه .

يا إلهى كل هذا فعلته دون وعى .. ما الذى أتحول إليه بالضبط ؟

أنا لا أعانى من الـ (Anablephobia) بالتأكيد وهى الرهاب من النظر لأعلى .. بل أنا أنظر لأعلى طيلة الوقت خوفًا مما سيسقط من هناك .

أشعر أنى على حافة الجنون .. يالها من نهاية .. نهاية هزلية .. طبيب نفسى يتحول إلى مختل عقليًا .. كل هذا بسببها .. أعنى السيدة (ماجدة) .. سيدة الأحلام .. الفراشة السوداء .

حاولت أن أنسى كل هذا ونظرت إلى وجه خطيبتى (نادين) .

إنها ملاك يسير على أرضنا .. إنها همسات الـ .. الـ .. لا أتذكر ، لقد هربت الكلمات من رأسى .. ما الذى كنت أريد أن أقوله ؟

لا يهم .. أريد فقط أن أعيش هذه اللحظة وأنسى ما ذكرته السيدة (ماجدة) عن موتى .. أريد أن أنسى .. وأنسى ..

ولكن أميرتى قاطعت محاولاتى البائسة فى النسيان ، لتقول :

ـ لماذا لم تغلقها بعد ؟

ـ عن أى شىء تتحدثين ؟

ـ المظلّة .

نظرت مندهشًا لأعلى فوجدت المظلّة .. إنها محقة .. أنا مازلت أمسكها ، وأستخدمها كدرع واق من ذلك الشر الذى سيهبط من أعلى .. كيف لم أنتبه لهذا طيلة الوقت؟ لابد أن موقفى أصبح مدعاة للسخرية من كل رواد الكازينو .. بدأت أشعر بالخوف .. ليس الخوف مما قد يأتى من أعلى ولكنه خوف من الإصابة بالجنون (Lyssophobia) .

سألتها باهتمام :

ـ هل حلمت بالأمس ؟

ـ لا .

ـ ولا أول أمس ؟

ـ لا .

ـ ألم تحلمى بأى شىء ؟

ـ لا .. ولكن لماذا تسأل عن الأحلام ؟

ـ ألم أخبرك عن تلك الحالة التى تقضى الجلسة كلها فى التحدث عن أحلامها ؟

ـ نعم .. لقد ذكرت لى شيئًا كهذا لم تذكر أى تفاصيل أخرى .. فأنت عادة كتوم فيما يتعلق بمرضاك فلا تحب أن تتحدث عنهم .

ـ هذا صحيح .. ولكن .. ربما لن أتحدث قريبًا عن أى شىء أصلاً .

ـ ماذا تعنى ؟

تجاهلت سؤالها ، وسألتها فجأة هذا السؤال غير التقليدى :

ـ هل تغضبين إذا مت ؟

طبعًا اندهشت للسؤال .. كان سؤالاً غريبًا بحق ، ولكنها أجابت عليه ببساطة :

ـ أغضب؟! هذه ليست الكلمة المناسبة .. أتقصد أحزن؟ بالطبع .. ولكن لماذا هذا السؤال المستفز ؟ ولماذا تذكر الموت الآن؟ ألا تجد كلامًا لطيفًا لتقوله لى اليوم ؟

وكأن عينيها أمرتنى قبل أن تنطق شفتاها فوجدتنى أقول بكل رومانسية :

ـ أتعلمين أن عينيك تجعلانى عاجزًا عن أى حديث ؟

أعجبتها الجملة وشرد تفكيرها فى سماء الحب .. ثم تكسرت أجنحة خيالها عندما تابعت قائلاً :

ـ أتعلمين أن عينيك فى (أعلى) رأسك .. والرأس دائمًا فى (أعلى) الجسم .. فكرى معى .. كيف بالله عليك يأتى خطر من (أعلى) ؟ ربما تسقط طائرة فوقنا .. ربما صاروخ .. وربما مركبة فضائية .

رمقتنى بنظرة حادة نارية ، لو تحولت إلى رصاص لقتلتنى على الفور .. وعلامات تساؤل كثيرة تطل من عينيها .. إن خطيبتى (نادين) حقًا همسات الـ .. الـ ..

قالت فى توتر :

ـ تصرفاتك غريبة اليوم .. إذا لم تحسن سلوكك سأنصرف .

ـ لا .. لا تنصرفى .. لن أقول شيئًا بعد .

ـ حسنًا .. تفضل .

بحثت عن أى شىء أقوله لا يغضبها .. إنها على وشك الانفجار وأنا السبب .. أستحق عقوبة قاسية لأنى السبب فى ذلك .. إن أدبها هو فقط الذى يمنعها من أن تسكب عصير الليمون علىَ .. وبعد سنوات من البحث والتنقيب عن أى كلمة مناسبة .. وجدت نفسى أقول :

ـ قمر .

ـ ماذا ؟

ـ قمر صناعى .

صاحت غاضبة :

ـ قمر صناعى ! أتقصدنى ؟!

ـ لا .. أنا أقصد أن هناك احتمالاً أن يكون ذلك الشىء الذى سيسقط من أعلى هو قمر صناعى .

نهضت من مكانها وأمسكت حقيبتها وهمت بالانصراف ، فأمسكت يدها الرقيقة وقلت بإلحاح مستعطفًا إياها :

ـ انتظرى من فضلك .. لا تنصرفى قبل أن تسمعينى .

ـ هل هناك سخافات أخرى تريد أن تقولها ؟

ـ لن أقول سخافات .. اجلسى واستمعى إلىَ جيدًا .

فأطاعتنى .. ما أرق قلبها !

خطيبتى (نادين) ..

إنها حقًا همسات الـ ..

ـ « ما الذى تريد أن تقوله الآن بعد كل هذا الهراء الذى قلته ؟ » .

قالتها لى بعصبية لا ألومها عليها .

ـ ماذا ستفعلين إذا رحلت فجأة ؟

كان سؤالى لها مفاجئًا .. فأجابت سؤالى بسؤال :

ـ هل تنوى السفر ؟

دائمًا يعتقدون أن الرحيل هو سفر .. لا يفكر أحد فى أن الرحيل يرمز أحيانًا إلى الموت .. يا عالم .. إنى راحل .

ـ نعم .. سفر بعيد نوعًا ما .

سألتنى ، وقد أرسلت نظرة احتقار استقبلتها على الفور :

ـ هل هذه هى المفاجأة التى تعدها لى منذ بداية خطوبتنا .. أن تسافر فجأة وتتركنى ؟

ـ لا تفهمينى بطريقة خاطئة .. إن الموضوع ستفهمينه خلال أيام .. وستعذرينني وقتها بالتأكيد .

ذكرنى هذا الموقف بمواقف مشابهة تكررت فى أفلامنا المصرية .. نفس التيمة .. البطل يعرف أن نهايته اقتربت ، والسبب دائمًا مرض خطير ولايذكرون اسمه عادة .. فتتغير معاملة البطل لجميع من حوله ويتغير أسلوبه فى الحياة .. الحياة التى سيتركها قريبًا .. بعض الأفلام تناولها بطريقة جادة ، والبعض تناولها بطريقة هزلية .

قديمًا كنت أنظر لهذه الأفلام بنظرة ساخرة .. أما الآن فالأمر يختلف .. أنا فى الفيلم الآن .. إن الأمر جد خطير .

ـ « كيف أعذرك ؟ » .

قالتها بطريقة جافة وبنظرة صارمة قاسية ، ثم تابعت قائلة بجدية :

ـ إذا كنت تريد أن تتركنى فاتركنى ، ولكن ليس بهذه الطريقة الساذجة .

ـ ماذا تعنين ؟

ـ لا تلعب دور البطل البرىء الذى يضحى من أجل حبيبته لأنه لايوجد شىء يستوجب أن تبذل من أجله التضحية إذا لم تكن قد

لاحظت ذلك .. ولماذا أرهقت نفسك بالحضور اليوم .. كان يمكنك أن ترسل لى خطاب اعتذار أو أن تتجاهلنى تمامًا وكنت سأفهم على الفور .

ـ ما الذى تقولينه ؟

ـ أنا نادمة على كل لحظة قضيتها معك وعلى أيامى التى عشتها أفكر فيك .. نادمة على كل كلمة حب نطقها قلبى قبل لسانى والحمد لله أنك أنهيت التمثيلية الآن قبل أن أتمادى أكثر فى ذلك الوهم الذى رسمته لى .. ألا وهو الحب .

خطيبتى (نادين) ..

مغرمة بالأفلام العربية القديمة .. لم تضع مشاهدتها هباء .

وفجأة .. وبدون إنذار .. خلعت دبلتها التى تزين إصبعها .. لا .. بل إصبعها الجميل هو الذى يزين الدبلة ، ثم وضعتها على المنضدة ، مستطردة فى لهجة تحد واضحة :

ـ دبلتك .. أيها المخادع .

ظللت صامتًا ساكنًا .. لا أعلم السبب .. ولكن لقد تطورت الأمور بسرعة صاروخية لم أكن أتوقعها ؟ وكنت أريد أن أترك خطيبتى ميتًا .. لا مخادعًا .

كيف سأشرح لها موقفى حتى تعود .. ولكن ..

لقد عادت .. نعم .. لقد عادت ..

لابد أنها عادت لتعيد الدبلة إلى إصبعها .. وراهنت نفسى على أنها قد تفهمت الموقف .. لابد أنها تفهمته ، وإلا لماذا عادت ؟

وقفت أمامى مباشرة ونظرت إلىّ فرفعت إليها كفى الذى يحمل دبلتها ثم ..

لا .. لم تأخذ الدبلة لتعيدها لإصبعها .. لقد أزاحت كفى جانبًا ، ثم قالت :

ـ أغلق المظلة .. لقد أضحكت رواد المطعم بما فيه الكفاية .

نظرت لأعلى .. وجدت المظلة مازالت مفتوحة .. سألت نفسى : ألم أغلقها بعد ؟

كيف هذا ؟ ما الذى يحدث لى بالضبط ؟

ثم سمعت صوتًا خافتًا .. ينبعث من مكان ما بالأعلى ..

نعم .. إنها همسات الـ ..

همسات الجنون .

أغلقت المظلة وقذفت بها بعيدًا .. لا .. لن أستسلم لهذا الخوف .. لن أدعه يدفعنى للجنون .. لن أدعه يسلبنى أعز ما أملك .. ألا وهو قلبها .

دفعت الحساب وخرجت مسرعًا من المطعم .. باحثًا عنها ..

أين ذهبت ؟ أين ؟

فى هذه اللحظة كان طائر الموت ينتظرنى فى هيئة صندوق عملاق يسقط ..

من أعلى .

★ ★ ★

10 ـ من أعلى ..!

اليوم : الأحد ١٣ يونيو الساعة السابعة مساءً

المكان : منزلى .

لا .. لم أمت .

اطمئنوا .. لقد انتبهت للصندوق منذ بداية سقوطه .. لاتنسوا أننى أسير هذه الأيام ناظرًا لأعلى ، ولولا ذلك لكنت ميتًا الآن .. لأن الصندوق سقط فجأة وبسرعة خرافية من إحدى الشرفات ولم أكن لأنتبه إليه أبدًا لو أننى أنظر أمامى مثل بقية البشر .

وهذا يعنى ببساطة شديدة أن السيدة (ماجدة) أنقذتنى من الموت .

ولو أنها لم تحك لى الحلم كنت ميتًا الآن .. ولكن .. لو أنها لم تحك لى الحلم لم أكن لأفكر فى الموت لم تكن خطيبتى لتترك المطعم غاضبة من تفكيرى فيه ..

ولم أكن لأهرع وراءها خارجًا من المطعم .. فى نفس اللحظة التى يسقط فيها الصندوق .

فهل كان مقدرًا للسيدة (ماجدة) أن تحكى لى الحلم حتى يحدث هذا كله فتكون نهايتى تحت ذلك الصندوق فى تلك اللحظة ؟ ولكنى لم أمت لأنها حكته لى .

أعتقد أنه كان مقدرًا لى ألا أموت تحت هذا الصندوق ..

سأتوقف هنا عن التفكير فى هذا الأمر .. ولأعيش حياتى بطبيعية .. لن ينقذنى من الموت حذرى .. ولن يؤجله معرفتى باقترابه .

وهكذا عدت للمنزل .. عدت ناظرًا للأمام .. وقررت ألا أنظر لأعلى مرة أخرى .

تسألون عن ماذا ؟ المظلة ؟! أعتقد أن هناك شخصًا آخر غيرى يستعملها الآن .

لقد عزمت على ألا أستسلم للخوف .. إذا كان مقدرًا لى أن أموت .. فى هذا الوقت فلأمت شجاعًا .. سأنتظر الموت بكل شجاعة .. كلنا سنموت .. ما الجديد ؟

أنا طبيب نفسى .. كيف سأعالج المرضى النفسيين وأنا كدت أن أصير أحدهم لأضطر حينها للذهاب إلى طبيب نفسى .

نصحت نفسى بالهدوء وتمالك الأعصاب والاسترخاء التام وقبلت نفسى النصيحة .

طبعًا اتصلت بخطيبتى لأضمد جروحها ، وأصلح ما قد تكسر .. إن الأمور قد تدهورت كثيرًا .. لا .. بل كثيرًا جداً .. وخطيبتى (نادين) ـ كما تعرفونها ـ ملاك .. لذا تقبلت اعتذاراتى البسيطة التى دامت لساعتين على الهاتف .. طبعًا لم تفهم شيئًا مما قلت .. عدا شىء واحد استوعبته جيدًا هو أننى أعتذر .. وهذا هو ما هدأ من ثورتها ، فقبلت الاعتذار .. رباه هى تعتقد أننى أغرمت بمشاهدة دور النذل فى الأفلام القديمة فقررت أن ألعب هذا الدور معها ولو

لمرة ، ولكنى وجدت الدور غير مناسب وغير لائق فتركته وعدت أعتذر .. وعدت أعتذر .. وعدت لدور المجنون .. أقصد مجنون (نادين) .. العاشق الذى لا يضر بجنون حبه أحد .

إن جنون الحب مقبول نوعًا ما .. أما أى جنون آخر فلتستدر وأطلق ساقيك للرياح .. ولكن صدقونى .. كل الجنون خطر بدرجات متفاوتة .. حتى جنون الحب ، وقد قابلت هذا النوع من الجنون .. ربما أحكى عنه تحت عنوان : (حالة جنون العاشق) أو (حالة العاشق) .. أو أى عنوان آخر يروق لى وقتها .

طبعًا قبلت (نادين) دعوتى لها على الغداء فى الكازينو فى اليوم التالى .. أما بالنسبة لما حدث فى اليوم التالى . فكان ..

★ ★ ★

اليوم : الاثنين ١٤ يونيو الساعة الثالثة مساءً

المكان : كازينو على النيل .

حضرت (نادين) كعادتها مشرقة متألقة .. إنها الجمال يسير على قدمين .. بل يطير .. أشعر أن قدميها لا تلمسان الأرض .. إنها أرق من الفراشة .. إن الفراشة نفسها ثقيلة الحركة بالنسبة لها .. إنها أرق من ذلك بكثير .

بعد الاعتذارات والعتاب والهمسات .. شرعت أشرح لها تفسير ما حدث وما بدر منى .. بالتفصيل الممل ومن البداية ..

ـ إن الحكاية تتلخص فى كلمتين : إن السيدة (ماجدة)

تحلم بـ ..

وبعد ساعة من الشرح .. بدأت خطيبتى التحدث لأسمع صوتها الذى بدا لى كموسيقا حالمة ألفها موسيقار عبقرى :

ـ ربما صدفة .

فسألت بدهشة حقيقية :

أى حلم بالضبط ؟

ـ مقتل الصحفى .

سألتها بدهشة حقيقية أكبر :

ـ ولماذا هذا بالذات ؟ فهناك العشرات .. إن هذه السيدة ليست لها هواية سوى أن تحلم .. فإذا افترضنا أن حلم مقتل الصحفى صدفة .. فماذا عن بقية الأحلام ؟ إن قانون الصدفة يعجز عن أن يكون التفسير الأوحد لكل هذه الحوادث .

شردت بعيدًا فى تفكير عميق .

هنا جاء صديقى ..

إنه صديقى (فكرى) .. رفيق الدراسة .. لم أره منذ زمن .. كانت لنا أيام لا نفترق فيها عن بعض .. يالها من ذكريات .. المدرسة الثانوية .. مباريات كرة القدم .. فناء المدرسة .. كابتن الفريق .. الوسيم .. الرسام .. المطرب .. متعدد المواهب حقًا .. ألقاب كثيرة منحناها له .. (روميو) .. (بيكاسو) .. (الخطيب) ..

(عندليب) .. إلخ .. إلخ .

لكن لماذا أتى إلى هذا المكان وفى هذه الساعة ؟

يالها من صدفة !

رآنى فأتى ليصافحنى .. ثم بالطبع مد يده إليها ليتعرف .. فقلت :

ـ خطيبتى (نادين) .. خطيبتى .. أتسمعنى ؟ خطيبتى .

قدمتها له مضطراً ، فقال مهنئًا بسعادة أشك فى كونها صادقة :

ـ ألف .. ألف مبروك .

هذا (الـ ..) ينظر إليها بنظرات خبيثة .. سأتحلى بالصبر حتى لا أرتكب جريمة ، سألته حتى أقطع عليه الإرسال :

ـ كيف حالك ؟

ـ عال العال .. وأنت ؟

ـ بخير والحمد لله .

ـ ضرب جبهته ، وقال :

ـ آه .. تذكرت شيئًا .. أنت طبيب نفسى .

ـ يقولون ذلك .

ـ حسنًا .. لقد حلمت بالأمس أننى أرى الـ ..

آه .. فليسندنى أحد .. أنا محاصر بمجموعة من البشر ترى أن

الحلم حق كالماء والهواء ، وأن الحلم لم يخلق إلا لكى نفسره ، ويرون أننى مناسب للقيام بهذه المهمة العظيمة .. يبدو أننى سأغير مهنتى بالفعل من طبيب نفسى إلى مفسر أحلام .. ربما أربح أكثر .

شرح لى حلمه .. لم أنتبه إليه كثيرًا لذا عندما سألنى :

ـ ماهو تفسيرك ؟

كيف أفسره وأنا لم أنتبه لما قاله لذا اكتفيت بإجابة مقتضبة :

ـ خير .. خير .

لم يقتنع صديقى بهذه الإجابة المقتضبة ، وسألنى فى إصرار :

ـ ماذا تعنى ؟

سيأتى لك خير .. خير كثير .. المهم أجبنى أولاً .. هل تنام جيدًا ليلاً ؟

ـ نعم .. أنام دومًا نومًا عميقًا .. أضع رأسى على الوسادة فأرفعها فى الصبـ ..

ثم بتر عبارته ، ثم فوجئت به يهمس فى أذنى حتى لاتسمعه خطيبتى :

ـ فيم تفكر خطيبتك؟ أم أنها شاردة هكذا طوال الوقت؟ قل لى .. هل هى إحدى مرضاك وأعجبت بها فخطبتها ؟

ـ لا .. لا .. إنها بكامل قواها العقلية .. إنها فقط تفكر فى كيفية

تأثيث بيت الزوجية .

وضع يده على صدره وتنفس الصعداء ، وقال :

ـ آه .. طمأنتنى ..حسنًا ألف مبروك .

ثم قال لى بصوت هامس :

ـ أريد أن أخبرك بشىء وأتمنى ألا تغضب منى .

ترى ما الذى سيقوله لى هذه المرة ؟ أنا لست مستعداً الآن لأى أخبار سيئة .. قلت بغيظ :

ـ لن أغضب .. ما الذى تريد أن تخبرنى به ؟

همس فى أذنى وهو يرمق خطيبتى بنظرة جانبية :

ـ لقد كنت المركز الثانى فى الوسامة أيام الدراسة .. لأنى كنت الأول طبعًا .. وأعتقد أنك لم تفقد جاذبيتك بعد .. ما الذى جعلك تختارها للزواج ؟ إنها ليست جميلة .. لا أعلم ما الذى أعجبك فيها ، ولكن .. طالما أنك تحبها .. لا دخل لى .

ثم ابتعد عنى قليلاً ، وقال بصوت مسموع جداً :

ـ ومرة أخرى .. ألف مبروك .

ومد يده لمصافحتى .. وأنا أفكر فيما سمعته أذناى منه .. هل قال ذلك حقًا ؟ لماذا قال ما قاله ؟ كيف يقول إن خطيبتى (نادين) ليست جميلة ؟!

سألته :

ـ وأنت ألن تتزوج ؟

ـ لن تصدقنى .

ـ لماذا تقول ذلك ؟

ـ فرحى بعد أسبوع .

ـ ماذا ؟

ـ ألم أقل لك لن تصدقنى؟ وها هى الـ..

ثم مد صديقى (فكرى) يده فى سترته وأخرج .. نعم .. كما استنتجتم .. بطاقة الدعوة .. صحت قائلاً بدهشة :

ـ ماهذا ؟ لأول مرة أرى عريسًا يضع بطاقات الدعوة فى جيبه .. هل أنت الذى تقوم بتوزيعها ؟

ضحك وغمز بعينيه قائلا :

ـ للأحباء فقط .. وهاهى ذى دعوتك .

ـ هل تريد أن تقول إنك كنت تعلم أنى هنا ؟

ـ لا .. فى الواقع لا أستطيع قول ذلك ولكنك أول المدعوين .. ودعوتك جاهزة منذ زمن وكنت سأحملها لك بالتأكيد وأعطيها لك بنفسى .

ـ وهل تعرف عنوان عيادتى ؟

ـ لا .

ـ أو حتى عنوان شقتى ؟

ـ لا .. ولكنى سأسأل وسأصل .

ابتسمت بهدوء وهنأته :

ـ ألف ألف مبروك .. أنت السابقون ونحن اللاحقون .

ـ ستحضر بالتأكيد .. لن أقبل أى أعذار .. الفرح يومى الأحد والاثنين .. لا تنس .

ـ سأحضر بإذن الله .

ثم أردفت همسًا :

ـ إن كان لنا عمر .

★ ★ ★

(نفس اليوم) : الاثنين ١٤ يونيو الساعة التاسعة مساءً

المكان : عيادتى .

جلست مسترخيًا على الشيزلونج .. مسترجعًا أحداث اليوم .

كان يومًا غريبًا بحق .. قضيت أكثر من أربع ساعات مع خطيبتى .. منهم ثلاث ساعات نفكر فى مدى احتمالية حدوث الحلم .. حلم موتى .. وهل تحقق أم لا ؟

قضيت هذا اليوم مع المرضى شاردًا .. أفكر فى محنتى .. موقف انتظار الموت .. نعم الموت .. بكل ما تحمله الكلمة من رهبة .. كيف لا نفكر فى الموت وقد نموت فى أى لحظة وبأى سبب ؟! تعددت الأسباب والموت واحد .

قمت لأجلس فى الصالة لأفكر فى أفضل صديق يمكن أن أذهب إليه فى هذا الوقت .. أفضل صديق بإمكانه مساعدتى على تجاوز هذه المحنة .. هل هو .. ؟ أم هو .. ؟ وبعد عشرات الوجوه التى تواردت إلى ذهنى لم أجد شخصًا بعينه هو الأفضل .. كلهم يصلحون بنفس الدرجة .. لذا ازدادت حيرتى فقررت العود للبيت مباشرة دون زيارة أحد قبلها .. لعل فى النوم راحة لتفكيرى .. وربما راحة أبدية .

توجهت إلى المطبخ لأشرب .. إن الثلاجة هناك .. ستسألنى عزيزى القارئ ما الذى يهمك فى ذلك .. سأخبرك .. لقد حدث شىء ما أثناء فترة تواجدى بالمطبخ .. والدليل على ذلك أنه عند عودتى من المطبخ وجدت مقعدًا من مقاعد الصالة ساقطًا على الأرض .. وهذا بالطبع لم يكن وضعه الطبيعى .

كان أول ما فعلته ـ وكاستجابة أجدها طبيعية ـ نظرت إلى السقف .. إن الخطر يأتى دائمًا « من أعلى » .. هذا شىء بديهى ، ولكنى لم أجد شيئًا ، فنظرت للأرض .. ربما سقط الخطر من السقف على الأرض .. ولكنى لم أجد شيئًا أيضًا .

ولكن سرعان ما استنتجت ما حدث .. لقد تحرك أحدهم فأسقط المقعد .. ولكن السؤال هو : هل تحرك من داخل العيادة إلى خارجها .. أم العكس ؟

وقررت أن أتعامل مع الموقف بإيجابية وحكمة شديدة .. أولاً أغلقت باب العيادة من الداخل .. ثم بدأت عمليه البحث .. إن كان

هناك أحد قد تسلل إلى العيادة منتهزًا أن بابها دائمًا مفتوح فبالتأكيد سأجده .

كانت أول غرفة أدخلها للتفتيش ـ متسلحًا بعصا المكنسة الطويلة ـ هى غرفة المكتب .. دققت النظر .. كل شىء كما هو .. المكتب .. الدولاب .. الشيزلونج .. الستا .. مهلاً .. الستارة لم تكن منبعجة بهذه الطريقة من قبل .. وهناك أيضًا حذاء ـ بدا واضحًا أسفل الستارة ـ لم يفلح اللص فى إخفائه .. بالطبع لا يحتاج الأمر إلى (شيرلوك هولمز) ليفهم الأمر .. إن المستلل يختبئ وراء الستارة .

سيكون حظى سيئًا إن كان لصًا .. أما إن كان مجنونًا فإن حظى أسوأ ..

تمالكت أعصابى .. واستجمعت شجاعتى وجذبت الستارة لأجد الخطر وقد جاءنى من أعلى .

★ ★ ★

كان طائر الموت هذه المرة حبلاً ..

لمحته يطير فى الهواء ليهبط على كتفى فيحيط برقبتى .

لقد كان المتسلل مستعداً بالحبل فى يديه .. وانتظر هذه اللحظة التى أجذب فيها الستارة ليرفع الحبل ويخنقنى به ..

إن هذا المتسلل كما اتضح لى على الفور ليس لصاً .

أو حتى مجنون ..

إنه قاتل ..

لقد كان حظى أسوأ مما تخيلته .

لم أستطع أن أرى وجهه لأنه كان ملثمًا ..

ورغم محاولاتى المستميتة لإنقاذ نفسى وإبعاد الحبل لم أفلح فى تحريكه قيد أنملة ، وضغط الحبل يزداد .. أوردتى ستنفجر .. شعرت أنها النهاية .. كنت أختنق ..

أختنق .

إن هذا الرجل لديه تصميم أكيد على قتلى .. لذا باءت محاولاتى كلها بالفشل ، ثم جاءتنى فكرة غريبة .. لم لاأرى وجهه ؟ على الأقل أرى وجه الرجل الذى يقتلنى فأموت وأنا مستريح من التفكير .. إن الفضول يقتلنى حتى وأنا على شفا الموت ..

وشرعت فى تنفيذ الفكرة على الفور .

وفشلت المحاولة .. لأنه منعنى من رؤية وجهه برفع ذراعيه ليبعد ذراعىَ ، ولقد مكننى هذا من التقاط نفس عميق بعد أن تراخت يداه قليلاً لثوان ، فانتهزت هذه الفرصة وأمسكت الحبل بقوة وجذبته بعيدًا عن رقبتى .

لا أعرف كيف جاءتنى القوة فجأة .. إنها حقًا إرادة البقاء .

ثم رفعت الحبل بعيدًا عن رأسى، فعاد القاتل يكرر محاولته مرة أخرى .. ولكن هيهات ..

فى المرة الأولى كان القاتل لديه عنصر المفاجأة .. أما هذه المرة فالأمر يختلف حتمًا .. لم تعد لديه عناصر تميزه عنى .. إنه صراع رجل لرجل .

استجمعت قوتى وقبضت على الأباجورة .. وجدتها فى مرمى يدى فاستخدمتها ، ضربته بها على رأسه ضربة قوية .. ضربتين .. ثلاثة .. أربعة .

خارت قواه أخيرًا وسقط على الأرض .. أعرف أناسًا يسقطون بعد الضربة الثلاثين .. يبدو أن للأباجورة استخدامات أخرى غير الإضاءة .

بالطبع جاءت اللحظة الحاسمة .. كان ممددًا أمامى على الأرض ، غائب عن الوعى .. الفرصة ذهبية لرؤية وجهه ..

انحنيت لأعرف من هو .. ورفعت اللثام ..

لقد كان ..

★ ★ ★

11 ـ رائحة الخيانة ..!

(نفس اليوم) : الاثنين ١٤ يونيو

الساعة التاسعة والربع مساء

المكان: عيادتى.

كما ترون فشلت محاولة قتلى .

هل سعدتم ؟ أم أن هذا قد ضايق البعض ؟ أعتقد أن هناك الكثير من القراءة قد استنتج نجاتى معتمدين على فكرة أن هذه مذكرات وهذا يعنى أنى نجوت لأكتبها .

لا .. هذا ليس دليلاً .. فلتتخلوا عن هذه الفكرة لأنه ببساطة يمكنك أن تجدوا فجأة جملة مثل : (هذه كانت آخر كلمات كتبها د. ياسين العوضى قبل أن يلقى مصرعه) ..

لذا لاتطمئنوا كثيرًا .. ربما أنا ميت الآن .. وهذه مذكراتى أمامكم لأن صديقى قد تطوع مثلاً لنشرها .

دعنا من هذا الجدل (هل أنا ميت أم لا ؟) ولنعد إلى المتسلل الذى كشفت هويته .

فى الواقع لم أصدق ما رأيته .. لقد دارت فى رأسى عشرات الصور لأشخاص عديدين مروا بى فى حياتى كطبيب نفسى .. ولكن لم أتخيل أن يكون هذا المتسلل هو الأستاذ (وليد) .. هل تذكرونه؟ إنه زوج السيدة (ماجدة) .

بعد أن استعاد وعيه .. وجد نفسه جالسًا على المقعد أمام مكتبى .. نظر حوله فوجدنى جالسًا فى هدوء وراء المكتب .. همّ بالنهوض ولكن هيهات .. لقد أحكمت تقييده إلى المقعد .. كان أول سؤال وجهته له بالطبع ، هو :

ـ لماذا ؟

نظر إلى الأرض فى خزى .. لا أعرف هل بسبب محاولته قتلى أم بسبب فشله فى ذلك ؟ وقبل أن أطيل التفكير فاجأنى قائلا :

ـ لقد خانتنى زوجتى .

آه .. ماذا ؟؟ هذه السيدة الوديعة يمكن أن تكون خائنة !! ولكن مهلاً .. ما علاقتى أنا بالموضوع ؟ ليس من الطبيعى عند اكتشافك خيانة زوجتك أن تهرع لتقتل طبيبها النفسى .. وقبل أن أسأله استطرد قائلاً :

ـ معك .

معى ؟ الآن فهمت لماذا حاول قتلى .. إنها مسألة شرف إذن .. لقد صوت له عقله المريض شيئًا ما .. قلت له بهدوء :

ـ من أدخل هذا التصور الأحمق فى ذهنك ؟

ـ أنا تأكدت بنفسى .. إن الخيانة لها رائحة يمكن أن تشمها حتى لو كنت ..

قاطعته بالطبع .. كان لابد أن أفعل لأن جملته استفزتنى .. من هذا الرجل الذى يشك فى زوجته لأن حاسة الشم لديه قوية ! ثم

إننا نتحدث عن خيانة .. لسنا نتحدث عن فسيخ مثلاً .. لذا قلت له بنفاد صبر :

ـ نحن نتحدث عن خيانة .. تحدثنى أنت عن رائحة .. اذكر لى أسبابًا من فضلك أدلة .. براهين .. ولا تحدثنى عن روائح إطلاقًا .

فقال وهو يرمقنى بنظرة كنظرة وكيل النيابة إلى مجرم أثيم :

ـ ألا تجلسان وحدكما لساعة .. وأحيانًا ساعتين ؟

ـ نعم .. ولكنها جلسات علاج .. يجب أن يكون فيها الطبيب النفسى والمريض فقط .. ويمكن أن تستغرق الجلسة وقتًا أطول من ذلك .. وهناك شىء آخر .. أنت الذى أحضرتها إلى هنا .. أى أنك مقتنع بالعلاج النفسى ، بل وتأتى معها وتغادر معها العيادة فى كل مرة .. فما الذى حدث ؟

ـ أعلم كل هذا .. ولكنى لا أعلم ما الذى تقولانه طيلة الجلسة .. ربما حدث شىء ما ، ثم اتفقتم على الـ ..

ـ أرجوك لا تكمل .

تذكرت فى هذه اللحظة كلماتها لى أمام زوجها فى المرة السابقة .

(قالت وهى تربت على كتفى :

ـ سأفتقدك حقًا .. إنك أعظم إنسان رأيته فى حياتى) .

ربما كانت هذه الكلمات هى التى زرعت بذور الشك فى صدره ..

قال لى :

ـ ثم إنها خرجت بالأمس ، وقالت إنها ذاهبة لزيارة صديقتها (سامية) ولكنى عندما اتصلت بصديقتها أخبرتنى أنها لم ترها منذ زمن .. فسألت نفسى : أين ذهبت إذن ؟ فتذكرتك وتخيلت ما حدث واتضحت لى الأمور على الفور .. إنها جاءتك بناء على اتفاق مسبق بينكما أثناء الجلسة .

إن هذا الرجل ترك عقلة للشيطان .. فلا أستبعد أن يكون الشيطان قد استخدم عقله للعب كرة السلة مع رفاقه .. فصور له خيانة زوجته ، ولم يجد الزوج أفضل منى ليعتقد أنه (الـ ..) موقف (عطيلى) آخر !

كاد أن ينهى ذلك الزوج الغيور حياتى .. أو يقضى على سمعتى إن كان لنا عمر .. وبالطبع بعد أن يتم القبض عليه بتهمة قتلى سيعلن للجميع أنه قتلنى بعد أن تأكد تمامًا من الخيانة .. ولن يذكر طبعًا أنها مسألة رائحة ليس أكثر .. وتكتب الصحافة عنوانًا مثيرًا مثل : (نهاية طبيب نفسى بعد فضيحة مشينة) ، وسيقرأ الناس الخبر فى لهفة .

سأكون بالتأكيد ميتًا حينها ؛ لذا لن أستطيع أن أرد على الاتهامات أو أنشر على الأقل تكذيبًا .. ياله من مصير كاد أن يلقينى فيه ذلك الـ .. الـ .. الزوج الغيور .

نهضت واتجهت إليه ، وأنا أسأله :

ـ كيف أثبت لك عدم خيانتى ؟

ـ فك قيودى أولاً .

ـ حسنًا .. سأفعل ، ولكن لا أريد عنفًا .. أتعدنى بذلك ؟

نظر لى وأعطانى إيماءة بسيطة تعنى القبول .. فحررته من القيود .. وتوقعت أى انقضاضة مفاجئة منه .. ولكن .. لم يحدث ما توقعته .. قلت له :

ـ جاءتنى فكرة .. سأتحدث مع زوجتك هاتفيًا .. سأتصل بها من هنا وتستمع أنت إلى حديثنا من الهاتف الذى بالصالة لتعرف من خلال حوارنا إن كنا نتقابل أم لا .. اتفقنا ؟

أومأ برأسه إيجابًا .. كانت فكرة رائعة .. وليدة اللحظة ولكنها مناسبة .. أسرعت إلى الهاتف وقد أعطانى الرقم ، واتصلت بمنزله .. ردت السيدة (ماجدة) .. لم يرد زوجها طبعًا لأنه ليس بالبيت إن لم تكن قد لاحظت ذلك .. سألتها أولاً سؤالاً خطر إلى ذهنى :

ـ ماهو ميعاد الجلسة القادمة ؟

ـ بعد غد .. الأربعاء .. إن كان لنا عمر .

خيل إلىّ أنها تقولها باسمة .. لا أعلم هل ستحزن السيدة (ماجدة) لموتى .. أم أنها ستفرح لأن الأيام أثبتت لها أن أحلامها تتحقق؟ هل ستستمع يوم وفاتى إلى أغنية (موعود) أم أنها ستفضل أغنية (هى دى هى .. فرحة الدنيا) ؟ أنا أفضل أن تستمع إلى أغنية أخرى لحليم ، وهى (صدفة) .

ـ حسنًا .. ومتى كان آخر لقاء بيننا إذن ؟

سألتها هذا السؤال وأنا ألوح لزوجها لكى يركز انتباهه فى سماع الرد حيث قالت :

ـ يوم السبت .

ـ أين ؟

ـ فى العيادة عندك طبعًا ، ماذا بك يا دكتور؟ هل فقدت الذاكرة؟ أم أنها رهبة الموت ؟ إياك أن تسألنى عن مكان العيادة .

ـ لا .. شكرًا .. لا عليك .. سأسأل حتى أصل إليها .

أشرت بالسماعة لزوجها مازحًا بمعنى (أتحب أن تحادثها) فأشار لى بيديه بمعنى (لا .. لا أريدها أن تعرف أنى كنت هنا) .

فوضعت السماعة دون أن أنهى معها المحادثة بأى كلمة مثل (إلى اللقاء) أو (أراك قريبًا) فربما ردّت علىّ بـ (أين بالضبط ؟ فى الدنيا أم فى الآخرة ؟) .

عدت لزوجها لأسأله بلهفة :

ـ هل اقتنعت ببراءتى الآن ؟

ـ نعم .

قالها بهدوء دون أن يعبر وجهه عن أى شىء مما يعتمل فى صدره فنصحته بـ :

ـ أرجو أن تكون متأنيًا فى تفكيرك .. ولا تكن مندفعًا هكذا فربما تسلب الأبرياء حياتهم دون أى ذنب جنوه .. وأرجو ألا تجعل الشك

يتسلل إلى قلبك بشأن زوجتك .. إنها سيدة محترمة مهذبة .. أنا لا أستطيع تخيل أنك تشك فيها .. أتعدنى ؟

ـ بماذا ؟

ـ بأن تكون حكيمًا .

ثم خشيت أن يفهم جملتى بطريقة خاطئة ، فاستطردت قائلاً :

ـ حكيمًا فى آرائك وتصرفاتك .. ولا تلقى بالتهم قبل التأكد من شكوك .. وليست كل المشاكل تحل بالقتل يا صديقى .

ثم تركته ينصرف بعد أن أقسم لى بأنه لم يعد فى صدره ربع ذرة شك تجاهى .

وبعد أن وعدنى بأن يكون حكيمًا .

لكن .. هل فعلاً اقتنع ببراءتى ؟!

وهل ..... ؟!

★ ★ ★

بعد أن انتهى هذا الموقف المثير ، جلست خلف مكتبى ، أدير الأمور فى رأسى . هناك سيدة تدعى (ماجدة) حلمت بموتى حيث جاءنى الموت من أعلى ..

وهناك رجل يشك فى زوجته ويعتقد فى وجود علاقة بينها وبين طبيبها النفسى ، فيقرر قتله والوسيلة تكون (حبل) .. ربما لأنه لم يجد مدية أو مسدس أو .. أو .. أو .. ربما لأن هذه الأشياء يصعب شراؤها أحيانًا ؛ لذا استخدم الحبل ..

والحبل يرمز غالبًا فى الأحلام إلى المشنقة والمشنقة تتدلى دائما (من أعلى) والحبل قد هبط علىّ (من أعلى) .. ألا تذكركم كلمة (من أعلى) هذه بشىء ؟

إنه الحلم .. أعتقد أنه قد تتحقق الآن .. لقد أتى الموت (من أعلى) ونجوت منه .. لقد كنت منتظرًا الموت وقد أتى دون أن يمسسنى بسوء .

طرت فرحًا .. فرحة هائلة عظيمة .. نشوة .. سعادة .. سرور .. حبور .. فرحة كأنها عودة الروح .. كأنى ولدت من جديد .. لدرجة خشيت فيها أن أموت من الفرحة .. تعددت الأسباب والموت واحد .

تمالكت نفسى .. إن ما حدث لا يعنى أنى سأعيش دهرًا .. أو أننى لن أموت غدًا .

وربما نجوت من هذه الميتة لأموت بطريقة أسوأ وأسرع .

إن الله وحده يعلم الغيب .

لقد تملكنى شعور واحد .. هو أن الحلم تحقق .. وخرجت منه سالمًا ؛ لذا لن أطيل النظر لأعلى ثانية ، لن أنظر أصلاً لأعلى .

إن الخطر القادم (من أعلى) قد زال ـ هكذا فكرت ـ إلى الأبد .

واعتقدت واهمًا أن الأمر انتهى عند هذا الحد .

ولكن كانت فى انتظارى مفاجأة ..

مفاجأة قاتلة .

★ ★ ★

12 ـ هذا الرجل لا يمزح ..

(اليوم) : الثلاثاء ١٥ يونيو الساعة العاشرة مساءً

المكان : عيادتى.

فى هذه الليلة تعرضت لمحاولة القتل الثانية .. لن أنكر أننى تعرضت لمحاولات قتل عديدة .. ولكن هذه هى المرة الأولى التى أتعرض فيها للقتل فى يومين متتاليين لدرجة خشيت فيها أن تصبح روتينًا يوميًا قبل النوم ..

كيف كانت المحاولة الثانية ؟ حسنًا .. سأخبركم ..

كنت قد أغلقت عيادتى واستعددت للنزول عندما سمعت صوتًا ما ..

لا أدرى كنهه ، ولكنى متأكد أنه جاء من أسفل ..

هناك شىء ما فى بئر السلم .. شىء مريب .. تباطأت فى النزول حتى اقتربت من الدور الأول .. هنا فقط لمحته متدثرًا بالظلام ومنتظرًا شخصًا بعينه ينزل الدرج .. شخصًا يعمل طبيبًا نفسيًا .. ويدعى (ياسين العوضى) .

كان منتظرًا خروجي من العيادة لينفذ مهمته ألا وهى قتلى .. لا أعلم لماذا أصبحت هدفًا جيدًا هذه الأيام لكل من يريد القتل .

لكنه لم يعلم أننى قد لمحته واستعددت للمواجهة .

اندفع نحوى ذلك الرجل المختبئ فى بئر السلم المظلم .. ملت جانبًا ؛ لأتفادى انقضاضته فاصطدم بالحائط ، ثم عاد ينقض علىَ

مرة أخرى وعلى ضوء خافت ينبعث من مكان ما ولثانية واحدة رأيت الحبل طائرًا فى الهواء ليستقر حول رقبتى .

هذا المشهد رأيته من قبل مؤخرًا .. هل التاريخ يعيد نفسه ؟

جذبت ذلك الشخص المعتدى نحو مصدر الضوء لأرى وجهه .. ربما يكون الأستاذ (وليد) مرة أخرى .. ويقترب وجهه .. ويقترب .. ويقترب .

ثم رأيته .. لم يكن ملثمًا .. ورغم ذلك لم أتعرفه .

لم أر هذا الوجه من قبل .. ولا أتذكر أننى عالجت مريضًا يحمل هذا الوجه .

الحبل يخنقنى وأكاد أموت ولقد جاء الحبل (من أعلى) .. هل هذا يعنى أن الحلم سيتحقق مرة أخرى ؟ كم مرة سأراه يتحقق ؟

حاولت أن أجذب الحبل بعيدًا عن رقبتى .. لا أعرف سر تصميم قتلة هذه الأيام على استخدام الحبل ؟؟ هل هو الغلاء ؟ أم أنها صيحة هذا الشهر فى عالم القتل ؟ أم يتبعون طائفة ما مثل (الخناقون) .. لابد من تفسير .

فى النهاية تخلصت من الحبل وألقيت به بعيدًا فسقط فى الظلام ففوجئت بالمعتدى يخرج مدية من جيبه .. لقد وصلنا مرحلة الإثارة القصوى .. إن هذا الرجل لا يمزح .. إنه يريد قتلى لا محالة .. وبأى وسيلة .. ولن يتراجع .

بحركة غريزية ركلت ذراعه فطارت المدية فى الهواء ، ثم

سمعت صوت ارتطامها بالأرض ، وهى تسقط فى بئر السلم المظلم .. تنفست الصعداء .. لقد جردت هذا الرجل من أسلحته .

لن يجد سوى يديه ليتخلص منى .. لكنى كنت واهمًا .

فبينما استعددت للمعركة اليدوية ، فوجئت به يخرج مدية أخرى ونصلها يلمع فى الضوء الخافت ليثير الرعب فى قلبى .. وسؤال يطرح نفسه .. كم مدية يحملها هذا الرجل فى جيبه ؟

★ ★ ★

وكما حدث فى المرة السابقة استخدمت ساقى ولكنى لم أركل ذراعه .. لقد صوبتها إلى المدية نفسها لتطير هى الأخرى وتسقط .. أين؟ لاأعرف حقيقة .. هذه المرة لم أسمع صوت ارتطامها بالأرض .

يبدو أن القاتل لم يتوقع مثل هذه الاستجابات السريعة .. كان يعتقد أننى فريسة سهلة .. ترى ماذا سيفعل الآن ؟ هل سيخرج مدية ثالثة ؟ لا أستبعد هذا .. وانتظرت .

ولكنه لم يخرج الثالثة .. لقد وقف ثابتًا .. ظننت أنه سيستخدم يديه وهذا ما انتظرته دهرًا .. ولكنى كنت واهمًا مرة أخرى .. لقد فتح سترته الجلدية وأدخل يده .. إن هذا لا يعنى سوى شىء واحد .

تراجعت للوراء .. أما هو فسحب يده ببطء أو هكذا خيل لى .. تراجعت أكثر صاعدًا لأعلى .. وأخرج هو يده أخيرًا ، وكانت ممسكة بمسدس كما توقعت .. يبدو أن جريمة قتل على وشك

الحدوث .. أنا متأكد من ذلك .. وهكذا تجدنى قد وصلت للطابق الثالث فى الثانية التالية .

لم يكن أمامى سوى الهروب لأعلى .. لأنه يسد علىّ الطريق إلى الخارج .

صعد بعدها ورائى حاملاً مسدسه المزود بكاتم للصوت .. إن هذا الرجل محترف بلا شك .. إنه فى هذه الليلة إما قاتل أو قتيل .

ولا أستبعد الاحتمال الأول .. ولكن .. إذا قتلنى ، فإن نصف حلم السيدة (ماجدة) قد تحقق .. النصف الخاص بقرب نهايتى .. أما النصف المتعلق بكيفية الموت فلن يتحقق لأنه يستخدم مسدسًا .. ولكن ربما سيطلق على النار (من أعلى) .

نفضت هذه الأفكار السوداء عن رأسى عندما وصلت إلى باب عيادتى .. إن العيادة تعد حصنًا مثاليًا يصلح للاختباء حتى أستطيع تدبر الأمر .

أولجت المفتاح فى ثقب الباب .. ولكن المفتاح يأبى أن يفتح الباب .. كالعادة يفشل المفتاح فى مهمته فى هذه اللحظات الحرجة .. لو لم يفتح فأنا فى عداد الموتى .

محاولات كثيرة ولا استجابة من المفتاح .

وصوت خطوات القاتل تعلو .. إنه يقترب والمفتاح لا يستجيب ..

لقد اقترب القاتل كثيرًا ..

وأخيرًا ..

أسمع صوت التكة الجميل ..

لقد استجاب الباب ..

★ ★ ★

وقف القاتل أمام باب العيادة الموصد .. أيقف منتظرًا خروجى؟ لا أعتقد ذلك .

هل سيطرق الباب ، ويقول : (افتح يا دكتور .. لن أؤذيك) .. لاأعتقد أنه أحمق .. ولا أعتقد أنه يتصورنى أحمق لأفتح .. ربما سيحاول فتح الباب ، أو حتى تحطيمه .. ولكنه وقتها سيحدث دويًا سيسمعه الجيران حتمًا وهذا ما لا يريده .

وفجأة ..

سمع القاتل خطوات صاعدة الدرج .. طبعًا لن يظل مكانه .. أين سيختبئ ؟ هل سيهبط ؟ .. إنه لا يريد لأحد أن يراه .. لذا فكر فى الصعود حيث كل الطوابق العلوية مظلمة والظلام سيفيده حتمًا .

وصعد إلى الظلام بسرعة حتى لا يلمحه الصاعدون .. ولقد كان الظلام بمثابة نقطة ضعف له حيث لا يعلم ما الذى ينتظره بالأعلى .. أما بالنسبة لى فقد كان نقطة تفوق مع إضافة عامل المفاجأة .. كان من الطبيعى أن يكون النصر حليفًا لى .

نسيت أن أخبركم أننى لم أدخل العيادة .. لقد صعدت لأعلى .

فعندما استجاب الباب بعد عناء صفقته على الفور بقوة محدثًا دويًا لا بأس به حتى يسمعه القاتل فيعتقد أنى بالداخل بينما أكون قد صعدت لأعلى ، وانتظرت هناك لأتابع ردود أفعاله .. إن ردود أفعال

البشر من أهم الأشياء التى تستهوينى مشاهدتها .. ولا أعتقد أننى الوحيد فى ذلك .. واسألوا عن ذلك مشاهد (الكاميرا الخفية) التى تعتمد فى أساسها على مشاهدة ردود الأفعال .

انتظرت صعوده لأنقض عليه انقضاضة استجمعت فيها كل قوتى .. وقد أفادنى عامل المفاجأة كثيرًا الذى أربكه للغاية بالإضافة لارتباكه المسبق من الظلام الدامس والقادمين من أسفل .

انتزعت المسدس منه بقوة وحصلت عليه .. الآن يمكننى استخدامه لأهدده به .. الآن يمكننى التفاهم معه .. لقد أصبحت سيد الموقف ..

إن المسدس أصبح بحوزتى ..

★ ★ ★

فى العيادة .

القاتل جالس على الشيزلونج وأنا أمامه على المقعد مصوبًا فوهة المسدس إليه بدقة وإحكام وثبات .. قال لى بخبث .

ـ لا أعتقد أنك ستقتلنى .. أنت طبيب .

قلت بنظرة واثقة متحدية ملوحًا بالمسدس :

ـ هل تحب أن تتأكد من استنتاجك ؟

لهجتى مع النظرة إياها أقنعته تمامًا .. لاتنس أننى طبيب نفسى .. رغم عدم تعمقى حينها فى التنويم المغناطيسى إلا أنه كانت لى نظرة مؤثرة لا تخيب .. قال لى بضيق :

ـ حسنًا .. هل ستسلمنى للشرطة ؟

ـ ليس قبل أن أعرف لماذا حاولت قتلى، لا أعتقد أنى رأيتك من قبل .

لم يرد وأحنى رأسه ناظرًا إلى الأرض؛ فتابعت :

ـ إذن أنت قاتل مأجور .

لم يقل شيئا .. أعتقد أن هذا يعنى أن الإجابة بنعم .. فسألته :

ـ من الذى طلب منك قتلى ؟

لم يرد .. فسألته :

ـ الأستاذ (وليد) ؟

ومن تعبيرات وجهه عرفت أننى أصبت الهدف .. يبدو أن الأستاذ (وليد) لم يقتنع ببراءتى بعد من تهمة الخيانة .. نظرت له وقلت بهدوء :

ـ لن أسلمك للشرطة .

فوجئ بما أقوله .. طبعًا لم يصدق فى البداية ما سمعه ، ولكنى أكملت قائلاً :

ـ ولكن لى شرط واحد .

ـ أتوب ؟ أليس كذلك ؟ موافق .. سأتوب ، أعدك أنى لن أفعل ذلك ثانية .. سأعمل فى حرفة شريف ..

قاطعته قائلا :

ـ التوبة .. أمر مفروغ منه .. ستتوب .. لأنك لو لم تتب سأقتلك بنفسى .. ولن أتردد لحظة وقتها .

كما قلت من قبل .. إن لى لهجة تجعل من يجلس أمامى يصدق ما أقوله ، لذا ابتلع ريقه عندما رأى منى ما يراه ـ بالتأكيد ـ من رجال الشرطة ، وقال :

ـ حسنًا وما هو الشرط ؟

ـ طلب بسيط .

ـ آه .. تريدنى في مهمة لك .. سأفعل ما تأمرنى به .. من الذى تريد التخلص منه ؟

ـ ألم تقل أنك ستتوب ؟

ـ آه .. نسيت .. ولكن ماهو طلبك إذن ؟

★ ★ ★

كان الجواب فى غاية البساطة ..

كان الشرط هو إجراء اختبار نفسى عليه ..

إنها فرصة عظيمة أن يتاح لك إجراء اختبار نفسى على قاتل مأجور .. وبالطبع لم أكن لأترك هذه الفرصة الذهبية تفلت من يدى وقد جاءت لى بقدميها .. وطبعًا وافق المجرم على الفور .. كما توقعت .

سألته عن اسمه فلم يرد ، فقلت له :

ـ أنا أعرف مواصفاتك فلم يرد ، فقلت له :

أنا أعرف مواصفاتك جيدًا فلا تنكر اسمك فلن يفيدك هذا كثيرًا .

ـ اسمى (زكى) .

وبدأ الاختبار النفسى ..

ـ من الذى دفعك إلى الجريمة .. هل المجتمع .. أم البيئة نفسها ؟

ـ الأستاذ (وليد) فقط هو الذى دفع لى .. لم يدفع المجتمع لى شيئًا .. وأقسم على ذلك .

فعدت أكرر السؤال بصيغ أخرى حتى يمكنه الفهم .. ولكن باءت جميع محاولاتى بالفشل .. فتركت هذا السؤال وانتقلت للسؤال الذى يليه .

★ ★ ★

بعد أربع ساعات من الاختبار النفسى .

أسئلة عديدة .. وإجابات طويلة مثيرة ستفيدنى حتمًا ، وتنمّى معلوماتى حول طبيعة ونشأة الشخصية الإجرامية .. قلت له :

ـ بعد أن حدثتنى عن عائلتك كلها ودراستك التى تركتها وأنت فى الصف الأول الإعدادى ، ثم تعرفك على أصحاب السوء الذين قادوك إلى طريق الضياع .. أريد أن أعرف متى اكتسبت أول مال حرام وكيف ؟

ـ دكتور .. هل يمكننى معرفة رقم هذا السؤال ؟

ـ لماذا ؟

ـ أريد أن أعرف .

ـ حسنًا .. إنه السؤال الثالث .

ـ الثالث .. كيف ؟

ـ نعم .. إنه السؤال الثالث فى الورقة التى أمامى .

ـ لم أقصد هذا .. أقصد رقم السؤال منذ بدأت الأسئلة .

ـ أعتقد أنه الثانى والأربعون .

ـ فقط .

ـ بعد المائة ... الثانى والأربعون بعد المائة .. نعود لسؤالنا .. متى كان أول مال حـ ..

قاطعنى قائلا :

ـ هذه أسرار مهنة يا دكتور .

ـ ولكنها ستفيدنى .

ـ هل تريد أن تتعلمها لتفيدك بعد أن تعتزل الطب ؟

ـ لا بالطبع .. ولكنها تفيدنى فى دراسة النفس البشرية .. وعليك أن تجيب دون مقاطعة ، فمازالت أمامنا أسئلة عديدة .. وأنتظر منك الإجابة عليها وإلا .. سأسلمك للشرطة .

ـ كم تبقى من الأسئلة ؟

تقريبًا مائتان وثمانون .

ـ دكتور .. من فضلك سلمنى للشرطة .

★ ★ ★

13 ـ إن أحلامك تتحقق فعلاً ..

(اليوم) : الأربعاء ١٦ يونيو

الساعة الثانية والنصف صباحًا

المكان : عيادتى.

كان مطلب (زكى) غريبًا .. كيف يطلب منى أن أسلمه للشرطة .. فسألته :

ـ لماذا تقول هذا :

ـ إن أسئلتك ثقيلة جداً وكثيرة لا تنتهى ، وتعيد لى ذكريات سوداء .. أما أسئلة وكيل النيابة فدائمًا أسئلة متوقعة وقليلة .. خمسة أو ستة أسئلة وينتهى الأمر .

نهضت من مقعدى وأردت أن أستخدم إيحائى مرة أخرى لأجبره على الاستمرار ، فهو بالتأكيد لا يرغب فى دخول السجن ، لذا قلت وأنا أتجه للهاتف :

ـ حسنًا .. إن كنت تريد ذلك .. أنا مستعد .. سأتصل بالشرطة لتـ ..

وانتهز فرصة التفاتى للهاتف ونهض بسرعة .. كانت هذه اللحظة هى طوق النجاة الذى انتظره طويلاً فاندفع فى أقل من ثانية إلى الباب وفتحه وغادر الغرفة ، وأغلق بابها من الخارج قبل أن أستوعب ما حدث .

طبعًا .. فضّل الهروب عن محاولة الهجوم علىّ .. خاصة وأنا أحمل المسدس .

بحثت عن مفتاح الغرفة فى درج المكتب حتى وجدته ، فهرعت لأفتح الباب وبالطبع لم أجد أحدًا بالخارج .. لقد خرج منذ قرون .. وأغلق باب العيادة خلفه .. يعجبنى أولئك الذين لا يتركون الأبواب مفتوحة وراءهم .

لقد أفلت المجرم من قبضتى .. ولكن .

حصلت أنا على إجابات مهمة لأسئلة الاختبار النفسى .. ومسدس عديم الفائدة بالنسبة لطبيب نفسى .

★ ★ ★

فى ليلتين متتاليتين تعرضت لمحاولتى قتل عمد ..

هكذا رتبت أفكارى ..

المحاولة الأولى : الأستاذ (وليد) .. الوسيلة : (الحبل) .. الدافع : الشرف .

المحاولة الثانية : القاتل (زكى) .. الوسيلة : (الحبل) ، ثم أشياء أخرى .. الدافع جنى المال .. أجر مدفوع من الأستاذ (وليد) .

لو أننا رتبنا الأفكار بهذه الطريقة ووضعنا بعض الأسئلة وحاولنا الإجابة عليها .. ربما توصلنا لشىء ما .

أولاً : إذا أراد شخص أن يقتل شخصًا آخر منتقمًا لشرفه فهل يأتى له ملثمًا ؟

ثانيًا : هل كان سيستخدم الحبل ؟

ثالثًا : هل سيبعث آخر ليقوم بالمهمة ، ويطلب منه استخدام الحبل أيضًا ؟

رابعًا : عندما يشك المرء فى زوجته .. هل من المعقول أن يذهب لقتل الرجل الآخر منتظرًا إياه بعد أن يفرغ من عمله ، ويترك زوجته حية رغم أنها أساس المشكلة وأمامه طيلة الوقت ؟

أعتقد أنك ـ عزيزى القارئ ـ توصلت إلى ما توصلت إليه أنا فى تلك الليلة .

لقد أصبح الأمر واضحًا جليًا .

إن الموضوع لا يتعلق بمسألة الشرف ..

إن الموضوع يتعلق بموضوع آخر ..

موضوع الأحلام .

★ ★ ★

(اليوم) : الأربعاء ١٦ يونيو الساعة الخامسة مساء

المكان : عيادتى.

فى هذا اليوم كانت الجلسة الرابعة لسيدة الأحلام .. (ماجدة) .

حضرت بصحبة زوجها كالعادة .. سلَّم علىَّ الأخير بتحفظ .. أما هى فسلَّمت على بابتسامة هادئة .. إنها لا تعلم شيئًا مما يحدث حولها .. للأسف .

طلبت من الفراشة السوداء أن تسبقنى إلى الداخل .. فدخلت على الفور بينما وقفت أنا وزوجها نتحدث كصديقين .. قلت له :

ـ كيف حالك ؟

ـ بخير .

ـ هذا عن صحتك ، ماذا عن عقلك ؟

ـ ماذا به ؟

ـ هل ما زالت تراودك الشكوك تجاهها ؟

لا .. إطلاقًا .. إنها سيدة عظيمة .. لقد كانت مرحلة سيئة ومرت بسلام والحمد لله .

ـ نحمد الله أنك عدت إلى رشدك .

ثم تركته واتجهت إلى غرفة مكتبى مبتسمًا فى سخرية .. لقد كانت ملامحه الصورة المثلى للارتباك .. ولم ير ابتسامتى بالطبع .

★ ★ ★

نظرت لى مبتسمة وهى مسترخية على الشيزلونج .. أراهن أنها تبتسم ابتسامة النصر لأن حلم مقتل الصحفى تحقق .. فى اعتقادها أنها تثبت لى بمرور الوقت صدق نظريتها مما يعنى أن نهايتى اقتربت أكثر .. تجاهلت ابتسامتها الشيطانية وسألتها :

ـ أين كنت يوم الأحد ؟

لم ترد .. لقد لمحت دعوة فرح صديقى ، فقالت مبتسمة وهى تمد يدها إليها :

ـ أرى أنك اقتنعت أخيرًا بامتلاكى الحاسة السادسة ، والدليل على ذلك أنك تريد أن تتزوج بسرعة قبل أن يتحقق الحلم .. ولكن للأسف لن يتم الزفاف ليس بسبب أنى حلمت أنك تموت ، ولكن لأنى حلمـ ..

قاطعتها قائلاً :

ـ ليس فرحى .. إنه فرح صديق لى .

قالت لى مبتسمة وهى تلوح بالدعوة فى يدها :

ـ لن يفيدك الإنكار يا دكتور .. معى الدليل .

ألقت نظرة على الدعوة وما كتب بداخلها .. هنا أيقنت أننى لم أكن أكذب وتجمدت الابتسامة على شفتيها .. تجاهلت ما قالته وكررت سؤالى لها بهدوء :

ـ أين كنت يوم الأحد ؟

تركت الكارت ، ثم نظرت إلى السقف شاردة لبعض الوقت مفكرة فى إجابة سؤالى .. جعلتنى أشعر أن جدول أعمالها كان مزدحمًا فى الفترة الماضية ، ثم أجابت بعد طول انتظار :

ـ فى البيت .. فأنا لم أخرج منه فى الأيام الماضية إلا لحضور جلساتك فقط .

ثم فجأة ـ وكأنها انتبهت لشىء ما ـ قالت :

وهل أنت زوجى لتسألنى هذا السؤال .. أو حتى وكيل نيابة يحقق فى جريمة ؟

تجاهلت تعليقها الأخير ، وقلت :

ـ إذن .. كنت فى البيت .. لقد توقعت هذه الإجابة على أى حال .

ـ هل تتوقع أشياء مثلى يا دكتور ؟

ـ يؤسفنى أن أصدمك بهذه الحقيقة .. أنت لا تتوقعين شيئًا بالمرة .

ـ يبدو أنك لن تقتنع بأحلامى إلا عندما يأتيك الخطر من أعلى ، ثم تموت .. ولكن للأسف ربما يفوتنى رؤيتك وأنت تقول (أحلامك تتحقق .. أصدقك الآن) ، ثم تنطق الشهادة وتفارق الحياة .

يا سيدتى إن أحلامك ليست رؤى تتحقق .. يجب أن تفهمى ذلك .

قالت وهى تفتح حقيبتها ، وتبحث بعينيها عن شىء تريد أن تريه لى :

ـ ليس معنى أنك لم تمت أنها لا تتحقق .. احمد الله أنك ما زلت حيًا وأن موتك قد تأخر قليلاً .. يجب أن تعلم جيدًا أنك سوف تموت مثل ذلك الصحفى الشهير الذى كنت تأمل أن يعيش لتكذبنى .

أراهن أنها كانت ستخرج خبر وفاة الصحفى من حقيبتها .. قلت :

ـ لا تخرجى الخبر .. لقد قرأته بالجرائد .

لا أعلم كيف سأخبرها بالحقيقة .. لكنى سأحاول .. نظرت إليها قائلاً بهدوء :

ـ اتركى حقيبتك واسمعينى جيدًا .. حان الوقت لنضع النقاط فوق الحروف .. استرخى تمامًا واستوعبى ما أقوله ..

أولا: زوجك جاءنى أول أمس وحاول قتلى مدعيًا أنه يشك فى وجود علاقة بيننا .

بالطبع علامات ذهول على وجهها .. أين المصورون ليلتقطوا صورة لها ليكتب تحتها « الذهول فى أفضل صورة » .

تابعت قائلاً بنفس الهدوء :

ـ ولذلك اتصلت بك ليلتها واقترحت عليه أن يستمع لمحادثتى معك لأثبت له براءتى من شكوكه .. وخرج من عندى واثقًا من براءتى .. ولكن لماذا يبعث زوجك بشخص آخر فى اليوم التالى ليقتلنى ؟ وبنفس طريقة زوجك فى القتل .. وهى الخنق بالحبل .. أتعرفين لماذا استخدم زوجك الحبل ؟ ولماذا طلب من القاتل المأجور استخدام الحبل أيضًا فى قتلى ؟ لا تقولى إن زوجك لا يحب رؤية الدماء .

ما زالت صامتة كصخرة وأنا أتابع :

ـ لأن السبب هو أن الحبل وسيلة المشنقة .. والمشنقة تتدلى (من أعلى) .. وهكذا يتحقق حلمك .

لم تنبس ببنت شفة وعلامات ذهول تتزايد ، وتستقر على وجهها فتابعت قائلاً :

ـ لقد اتصلت بعمتك اليوم وأخبرتنى بحادث وفاة عمك .. أتعلمين أنها كانت تجلس بجواره فى السيارة وقت الحادث ؟ لقد أخبرتنى بالتفصيل كيف وقعت الحادثة .. قالت إن سيارة من ناحية

اليسار اصطدمت بهم فجأة وكان الذى يقودها رجل ملثم .. ولقد أطلق رصاصات على إطارات السيارة وكنتيجة طبيعية لم يستطع عمك التحكم فى قيادة السيارة ، وقد انفجرت إطاراتها فانقلبت بهما ليلقى عمك مصرعه وتظل عمتك على قيد الحياة .. أى أن السيارة لم تسقط فى النيل كما جاء فى حلمك .. لقد تدحرجت حتى اقتربت من السقوط فى النيل .. ولكنها لم تسقط فيه .. ألم تخبرك عمتك بذلك .

ـ لا .. لقد كان (وليد) يمنعنى من زيارتها .

ـ حسنًا .. هل تحتفظى بخبر وفاة عمك ؟

ـ لا .. لم يحضر (وليد) الجرائد يومها .. وقال إنهم اعتبروها حادثة عادية لذا لم ينشروا عنها شيئًا .. ولكنه تابع التحريات بنفسه ، وأخبرنى أن مارأيته فى الحلم هو ما حدث بالفعل .

نهضت من مكانى واتجهت إلى المكتب لأحضر الجريدة التى تستقر فوقه ، وقلت لها :

ـ حسنًا .. إن عمتك لا تحتفظ بالخبر فقط مثلما تفعلين ، ولكنها تحتفظ بالجريدة بأكملها التى بها الخبر .. خبر وفاة أخيها .

وأعطيت السيدة (ماجدة) الجريدة ، وأنا أقول :

ـ صفحة الحوادث .. الصفحة الثامنة .. فى منتصف الصفحة بالضبط .

فتحت الجريدة وبحثت عن الصفحة حتى وصلت إليها وشرعت فى القراءة بصمت .. قلت لها :

ـ وعلى فكرة لم يكن يستمع إلى أغنية (فيروز) .

ـ .....

ـ هل زوجك هو الذى يحضر لك الجرائد دائمًا ؟

ـ .....

ـ على فكرة .. عمتك تفتقدك جداً .

لم تقل شيئًا واستمرت فى القراءة ذاهلة .. إن مفاجآت كثيرة تنهمر على رأسها وأفكار أكثر تتصارع داخل عقلها .. تركتها لأعطيها فرصة لاستيعاب الأمر .

بعد أن فرغت من القراءة قلت لها مفسرًا :

ـ تخيلى أن لديك صديقة .. ولنفترض (س) .. حلمت أن (س) تسقط من الشجرة .. فأخبرتها حتى تتوخى حذرها وأخبرت أيضًا صديقة أخرى بالحلم ولتكن (ص) مثلاً ، وفى يوم ما .. تأتى صديقتك (ص) فتلمح (س) فوق الشجرة ؛ فتصعد إليها لتوقعها من فوقها .. هنا تشاهدين أنت سقوط (س) فتعتقدين أن الحلم قد تحقق ولكنك ـ للأسف ـ لم تلمحى (ص) التى كانت وراء تحقيق الحلم .

توقفت للحظات لتستوعب المثال ، ثم قلت لها الكلمة الحاسمة فى الموضوع :

ـ إن أحلامك تتحقق بالفعل ، ولكن .. ألم تعرفى بعد من هو (الطباخ) ؟

ارتجف جسدها كله من تصور الفكرة ..

كان من السهل رؤية الارتجافة .. إن كيانها كله تزلزل .. أعتقد أنها أدركت الإجابة وليست فى حاجة لأن أنطقها ، وبالرغم من ذلك أردت قولها :

ـ إن الطباخ هو زوجك .

ـ ورأيت جسدها كله ينتفض ..

وبمنتهى العنف .

★ ★ ★

14 ـ إن أحلامك تتحقق فعلاً..

(نفس اليوم) : الأربعاء ١٦ يونيو

الساعة الخامسة والنصف مساء

المكان: عيادتى.

بعد الاسترخاء وكوب الليمون قالت السيدة (ماجدة) بحزن :

ـ إذن الحكاية ليست نبوءات أكثر من كونها أوامر .. إن زوجى يعتبر محقق أحلام .

أومأت برأسى إيجابًا ، ثم قلت موضحًا الأمر :

ـ لقد كنت تحكى له كل أحلامك .. ولسبب ما يذهب هو لينفذها .. وبدقة كما حكيتها له .. لقد شككت منذ لحظة هجومه علىّ ملثمًا ولم يبد لى صادقًا وهو يشرح دافعه لقتلى .. وزادت شكوكى نحوه عند محاولة القتل الثانية .. هنا بدأت أرتب الأمور وأنظر لها من زاوية جديدة .. وعندها توصلت لهذه النتيجة .. لقد كان زوجك محقق أحلام .. وللأسف كانت أحلامك كوابيس ومعظمها لأناس تحبينهم .. هنا أجد سؤالاً يطرح نفسه : ماذا لو حلمت يومًا بأنك امتلكت سيارة .. هل كان سيحقق لك هذا الحلم فيشترى لك السيارة؟ قليلات من يجدن أزواجهن يحققون لهن أحلامهن ، وللأسف لم تستغلى هذه الميزة .. لقد كانت كل أحلامك كوابيس والسبب مشاهداتك لأفلام الرعب .

ولكن هناك أحلام أستبعد أن يكون له يد فيها .. مثل حلم (رصيف نمر ٥) .

ما زالت تستفزنى ولكنى تمالكت أعصابى .. لقد رأيت حالات أسوأ منها فى عدم الاقتناع ، لذا أجبت بهدوء :

ـ أتعلمين أن عمتك بنفسها جاءت إلى عيادتى؛ لتعطينى هذه الجريدة .. فعلت هذا من تلقاء نفسها عندما أخبرتها بالحقيقة المؤلمة ، فرأت أن هذا قد يساعد فى إقناعك وبالتالى فى القبض على الذى قتل أخاها وكاد أن يقتلها .

ـ هل ستقبضون عليه ؟

ـ بالتأكيد .. بعد هذه الجرائم التى ارتكبها لابد من أن يلقى جزاءه خلف القضبان ، أو يودع فى مستشفى للأمراض العقلية .. هل تعتقدين أننا سنتركه هكذا حرًا طليقًا .. إنه مجنون خطر على المجتمع .. وهنا نأتى لموضوع جلستنا هذه المرة .. كيف يمكننا الإيقاع بزوجك متلبسًا ؟ لابد من خطة .. ولقد وجدتها .

قالت لى السيدة (ماجدة) فى استسلام :

ـ وماهى خطتك ؟

ـ أعرف أنه من الصعب أن تفكرى فى تسليم زوجك للشرطة ولكنه مذنب ، ويستحق هذا .. وتذكرى دائمًا كل الجرائم التى ارتكبها .

ـ ألا يوجد احتمال أن يكون بريئًا ؟

ـ لا .. ولا أشك فى كونه مذنبًا .. وستثبت خطتى ذلك .. إن خطتى تعتمد على حلم جديد .. ولكن الحلم هذه المرة سيكون من خيالى .

ـ كيف ؟

ـ هل يوجد بيت قديم لعائلتكم ؟

ـ نعم .. هناك فيلا جدى لا يسكنها أحد .. ولكننى أذهب إليها أحيانًا لأقضى فيها بعض الوقت كنوع من التغيير .. وكذلك عمتى تفعل .. وعمى أيضًا كان يـ ..

قاطعتها قائلاً :

ـ حسنًا .. حسنًا .. هذه الفيلا مناسبة للحلم .. ستخبرين زوجك فى صباح الغد أنك حلمت ليلاً بأن الطباخ وضع فيلا جدك فى مقلاة على النار .. لابد من طباخ حتى يكون الحلم مقنعًا .. ثم ألقى بالزيت عليها مع بعض البصل والثوم ولكن لامست النار الزيت ، واشتعلت المقلاة واحترقت الفيلا وأخرجت دخانًا كـ ..

★ ★ ★

« ... كدخان المداخن التى رأيناها فى رحلة (بنى سويف) » .

قالتها السيدة (ماجدة) وهى تروى لزوجها الحلم ، وهما يشاهدان برامج الفترة الصباحية .. فسألها زوجها باهتمام :

ـ والفيلا كانت تدخن فى الصباح أم المساء ؟

ـ فى المساء .. لأن القمر كان يظهر من نافذة المطبخ .. وساعة الحائط التى كانت خلف الطباخ كانت تشير إلى العاشرة .. ولكن ما معنى هذا ؟

ـ لا أعرف .. ولكن ما أعرفه جيدًا هو أن أحلامك تتحقق دائمًا .. أشهد لك بذلك ..

ولكن لا تجعلى هذا يدفعك للجنون .

ـ لا أستبعد ذلك .. إن الأمر يزيدنى توترًا يومًا بعد يوم ، فربما لو تحقق هذا الحلم أجن فعلاً .

ضمها إليه وربت على كتفها بحنان ، وقال بكل رومانسية :

ـ فلنأمل ألا يتحقق حتى تظلى عاقلة يا حبيبتى .

★ ★ ★

اتصلت بى السيدة ماجدة ..

ـ لقد فعلتها يا دكتور .

ـ حقًا ؟

ـ أنا لا أصدق أنى فعلت ذلك .. لقد كدت أن أعترف له بمعرفتى بالحقيقة .. وأسأله لماذا يفعل ذلك .

ـ إياك أن تفعلى .

ـ لقد تماسكت حتى النهاية .. ولقد صدقنى .

ـ أتمنى ذلك .. وأتمنى أن تكونى قد أخبرتيه بالحلم كاملاً كما قلته لك .

ـ نعم .. بالحرف .

ـ حسنًا .. دورك انتهى هنا .. وسيبدأ دورى أنا ورجال الشرطة للإيقاع بالطباخ .

سننتظره أمام فيلا جدك لنقبض عليه متلبسًا وهو يقوم بحرقها وسيكون الليلة .

نعم .. الليلة .

★ ★ ★

(اليوم) : الخميس ١٧ يونيو الساعة العاشرة مساء

انتظرت أنا ورجال الشرطة أمام فيلا جد السيدة (ماجدة) .. وانتظرنا .. وانتظرنا .. متوقعين فى أى لحظة ظهور شخص يريد أن يحرق الفيلا .

طبعًا نحن نعرف من هو هذا الشخص المنتظر .

★ ★ ★

الساعة العاشرة والنصف مساء

لم يظهر أحد .. وبدأ رجال الشرطة يتذمَّرون من الانتظار .

★ ★ ★

الساعة الحادية عشر مساء

لم يظهر أحد ..

وغادرنا جميعًا المكان وكنت فى موقف حرج .

★ ★ ★

(اليوم) : الجمعة ١٨ يونيو الساعة العاشرة صباحًا

المكان : عيادتى .

اتصلت بى السيدة (ماجدة) وأخبرتنى أن زوجها لم يخرج من البيت الليلة الماضية .. فأخبرتها أنى خمنت ذلك ؛ لأننا انتظرناه بالأمس ولم يأت .

أما هى فبدأت تشك فى نظرية محقق الأحلام .

أما أنا فطلبت منها أن تتصل بى بمجرد خروج زوجها ليلاً حتى أستعد ومعى رجال الشرطة .

★ ★ ★

(نفس اليوم) : الجمعة ١٨ يونيو

الساعة العاشرة والنصف مساء

المكان : عيادتى .

اتصلت بى السيدة (ماجدة) وأخبرتنى بأن زوجها قد خرج فتوجَّهت على الفور إلى قسم الشرطة ، ثم توجهنا إلى فيلا جدها .

★ ★ ★

الساعة الحادية عشر مساء

وقفت مع رجال الشرطة منتظرًا وأنا على يقين تام أنه سيأتى هذه المرة .. لقد خرج .. إذن سيأتى .. وانتظرنا .. وانتظرنا ..

وكان موقفى حرجًا مرة أخرى ؛ لأنه لم يأت أحد .

وبدأت أشك فى صحة استنتاجاتى .. ربما هناك خلل ما فى النظرية .. نظرية محقق الأحلام .

ربما لا يوجد محقق أحلام ..

أو ربما هناك محقق أحلام آخر ..

آخر سمع بأحلامها وذهب ليحققها وحرض زوجها على قتلى .. ولكن .. من هو هذا الآخر ؟ كيف أعرفه ، وقد كانت تحكى أحلامها لكل من تقابله ؟!

ولكن نظرية (الآخر) بها خلل ما أيضًا .

ألا تلاحظ هذا معى ؟

★ ★ ★

(اليوم) : السبت ١٩ يونيو الساعة الرابعة مساء

المكان : عيادتى .

اتصلت بى السيدة (ماجدة) لتقول :

ـ هل أحرق الفيلا ؟

ـ لا .. ستقولين أنك تشكين فى صحة نظريتى .. معك حق .. أنا نفسى بدأت أشك فى صحتها .. هناك خلل ما فى موضو ..

قاطعتنى قائلة :

ـ بالعكس يا دكتور .. إن نظريتك صحيحة .. إنه زوجى .. لقد تأكدت من ذلك .

كانت مفاجأة حقيقية لى أن تقول هى ذلك .. هى التى ظلت دائمًا تؤمن بأن أحلامها تتحقق .. هى التى ظلت حتى أمس تشك فى صحة نظريتى .. قلت لها مندهشًا :

ـ ماذا ؟ ماذا تقولين ؟ كيف تأكدت ؟

ـ لقد جاءنى اليوم حاملاً الجريدة المسائية ؛ ليرينى الخبر الذى يؤكد أن حلمى قد تحقق كالعادة .. وأخبرنى أن فيلا جدى احترقت .

ـ ولكن فيلا جدك لم تحترق على حد علمى .

ـ أعلم هذا .. لقد أحرق فيلا أخرى معتقدًا أنها فيلا جدى .

ـ يا إلهى .. كيف يحدث مثل هذا الخطأ ؟

ـ آسفة .. آسفة جدًا .. ولكنى اكتشفت اليوم فقط أنه لم يكن يعلم فيلا جدى جيدًا .

ـ حسنًا .. وماذا فعلت ؟

ـ لقد أخبرته أن الفيلا التى يتحدث عنها الخبر ليست فيلا جدى ثم وصفت له فيلا جدى .

ـ حسنًا فعلت .. أتمنى أن تكونى وصفتها له جيدًا .. حتى لا نجد نصف المدينة محترقًا قبل أن نقبض عليه متلبسًا .

ـ لا تقلق يا دكتور .. لقد وصفتها له وصفًا دقيقًا .. أنا لا أتمنى أن يتكرر حريق القاهرة بسببى .

★ ★ ★

(اليوم) : السبت ١٩ يونيو الساعة العاشرة مساء

اتصلت بى السيدة (ماجدة) .. ثم قسم الشرطة .. ثم فيلا جدها .. السيناريو المعتاد .. ولكن تمنيت ألا يتكرر نفس السيناريو حتى النهاية .. أتمنى أن يحدث تغيير .

أن يظهر زوجها مثلاً ..

وانتظرنا ..

وانتظرنا ..

وتغير السيناريو ..

وظهر الطباخ ليطهو حلمًا جديدًا ..

كان الأستاذ (وليد) يحمل (جركن) بدا لى أنه يحوى بنزين .. بدأ يسكبه حول الفيلا ، فأشرت للضابط حتى يأمر جنوده بالقبض عليه ، ولكنى فوجئت به يقول بجدية :

ـ أريده متلبسًا .

ثم كور يده ورفعها عاليًا ، وتابع قائلاً :

ـ لابد من حالة تلبس .

ـ كيف ؟

ـ وهو يشعل الثقاب ويتأهب لحرق الفيلا .

نظرت للضابط فى دهشة .. هل يريد هذا حقًا ؟ أتمنى ألا يطلب الانتظار حتى تحترق الفيلا بأكملها .

غاب زوج السيدة (ماجدة) عن النظر .. اختفى تمامًا .. ثم عاد للظهور حاملاً (جركن) آخر وشرع يسكب محتواه ، فذهبت للضابط أحثه للانقضاض طالما أن الفرصة سانحة ، ولكنه كور يديه مرة أخرى ورفعها عاليا ، وقال :

ـ لابد من حالة تلبس .

فانتظرت لم يتبق إلا القليل .. فلأصبر .. ثم جاء الطباخ بجركن ثالث وسكب محتواه أيضًا .. فأشرت للضابط مرة أخرى فكور يديه ورفعها عاليًا ففهمت ما يريد قوله .. (لابد من حالة تلبس) .

كل ما أخشاه أن يهرب دون أن نقبض عليه .. ولكن لم القلق ؟ على الأقل لقد تأكد الضابط من صدق بلاغى .. وهذا يكفينى مؤقتًا . « الآن » .

قالها الضابط أخيرًا فاستعد كل جنوده للانقضاض .. فنظرت للمشهد الذى يعتبره الضابط (حالة تلبس) فوجدت الزوج يبحث فى جيوبه عن ثقاب لإشعال الحريق .

حسنًا .. أهذا ما كان ينتظره الضابط فعلاً ؟!

« انتظروا » .

قالها الضابط فجأة .. فنظرت له بدهشة .. لم الانتظار ؟ فالتفت إلى الناحية الأخرى فعرفت السبب إن الأستاذ (وليد) بحث فى كل جيوبه ولم يجد ثقاب .. يبدو أنه جهز كل شىء ونسى إحضار الثقاب .. لا أعلم هل حظى سيئ .. أم حظه هو جيد ؟

بعد كل هذا فشلت الخطة فى اللحظة الأخيرة .

ولا عزاء لـ (حالة تلبس) .

لن يقبض الضابط عليه إلا إذا أشعل الثقاب .

وهو لن يشعل الثقاب إلا إذا كان لديه واحد .. ترى هل سيذهب لشراء علبة ثقاب ويعود ليكمل مهمته ؟

أتمنى ذلك .. أم أنه سيعود إلى بيته مؤجلاً المشروع ليوم آخر ؟ ومتى سيكون هذا اليوم الآخر؟ ترى ما الذى يفكر فيه الآن ؟ هل نذهب ونسأله عن القرار الذى اتخذه ؟

ثم جاءتنى فكرة .. لم لا أذهب إليه ومعى علبة ثقاب ، ثم أقول له ببساطة :

ـ كابتن .. ألا تحتاج شيئًا .. علبة ثقاب مثلاً؟ يبدو أنك كنت على وشك إشعال حريق ولم تجد معك واحدًا .

لا .. لن تصلح هذه الفكرة .

لن تصلح أبدًا .

ثم هبطت علىَ فكرة أخرى .. فكرت فى قذف علبة الثقاب لتسقط بجواره فيراها ويستخدمها .. ولكن ربما يخاف .. ربما يشك ، فيرحل بلا رجعة .

لابد من فكرة .

وأخيرًا جائتنى فكرة مناسبة .. أن أرسل طفلاً ليسير بجواره ومعه علبة ثقاب فى يديه فيراها ، فيأخذها منه ، ثم .. إلخ .

لا بأس بها من فكرة .

لمحت بطرف عينى طفلاً يلعب فى الشارع .. أشرت إليه فجاء على الفور .. نظرت فى عينيه .. كان الذكاء يطل منهما .. أعتقد أنه يصلح لهذه المهمة .

أعطيته ربع جنيه فظهرت أطنان من السعادة على وجهه ، وهو يضعه فى جيبه بحرص .. طلبت منه أن يحمل علبة الثقاب ويسير بجوار ذلك الرجل المنتظر هناك وأشرت إلى الأستاذ (وليد) .. ففهم الطفل على الفور .. ألم أقل لكم أن الذكاء يطل من عينيه .

أخذ منى علبة الثقاب واتجه ناحية طباخ الأحلام .

ووقف بجواره حاملاً العلبة فى يديه ..

ولكن ..

للأسف لم يلمحها الأخير ليأخذها منه .. ماذا أفعل الآن ؟ لابد من فكرة أخرى .

وقبل أن يبدأ عقلى فى البحث عن فكرة جديدة .. رأت عيناى مشهدًا جعل شعرى ينتصب .

لقد وقف الطفل فوق الأرض التى تشربت البنزين ..

وأخرج عود ثقاب من العلبة وأشعله ..

كارثة ..

★ ★ ★

15 ـ فى اللحظة الأخيرة ..

اليوم: السبت ١٩ يونيو الساعة العاشرة مساءً

كارثة كادت أن تقع .. المشهد كان مرعبًا ..

لقد رأيت الطفل يشعل عود ثقاب من العلبة التى أعطيتها له .. وكان واقفًا على الأرض التى تشربت البنزين .. فنهضت على الفور واندفعت كالصاروخ لأمنع حدوث الكارثة التى سأكون أنا سببها .. ما ذنب هذا الطفل البرىء ؟

ولكنى توقفت عندما لمحت الأستاذ (وليد) نفخ بفمه ، فأطفأ شعلة النار الصغيرة التى تكونت عند رأس العود فى اللحظة الأخيرة قبل أن يلقيها الطفل على الأرض .. ثم قال للطفل ناصحًا :

ـ لا تلعب بمثل هذه الأشياء مرة أخرى .. إنها خطر .

لا زال لدى الأستاذ (وليد) بعض العقل بعد كل هذا !

ثم أخذ الأخير علبة الثقاب من الطفل الذى جرى بعيدًا .. تأكد من عدم وجود أحد يراه ثم أشعل عودًا .. هنا جاءت الكلمة السحرية .

ـ « الآن » .

ليتحرك بعدها رجال الشرطة ، وأرى الأستاذ (وليد) مقيدًا فى ثوان معدودة ومحاطًا برجال لا أعرف من أين أتوا بالضبط ، ليأخذوه إلى مصيره الذى لا يعلمه إلا الله ..

هل سيكون السجن ؟ أم المستشفى ؟

طبعًا كان من الصعب أن يبرر وجوده هنا مع علبة ثقاب وعود مشتعل .. أتجد أن رى الحشائش بالبنزين ليلاً حجة مقبولة ؟ وهل كان يستلزم ذلك عود ثقاب مشتعل .

فجأة استوقفنى ضابط الشرطة قائلاً :

ـ يمكننى أن أتهمك بالاشتراك معه فى الجريمة .

هل يمزح أم ؟؟ .. ولكنه تابع قائلاً وفى يده علبة الثقاب إياها :

ـ أليست علبة الثقاب هذه تخصك ؟

سواء كان يمزح أم ... قلت له :

ـ أثبت أن البصمات التى عليها هى بصماتى ، ثم .. لابد من حالة تلبس .

وكورت يدى ورفعتها عاليًا مثلما كان يفعل .. فابتسم وانصرف .

★ ★ ★

اليوم: الأحد ٢٠ يونيو الساعة الحادية عشرة ظهرًا

المكان: قسم الشرطة .

توقعت أن يبرر الأستاذ (وليد) فى التحقيق قيامه بهذه الجرائم إلى أنه ـ مثلاً ـ محقق أحلام .. قرر أن يجعل هدفه فى الحياة هو إسعاد زوجته عن طريق تحقيق أحلامها .. ربما بدا هذا معقولاً بالنسبة لمجنون مثله .. طبعًا لم يكن بمقدوره أن يقول: إنه كان نائمًا .. أى أنه يرتكب كل جرائمه وهو سائر أثناء نومه لأننا ضبطناه وهو يقظًا للغاية .. وتوقعت أيضًا أن يقول ـ كما نرى

فى الأفلام الأمريكية ـ إنه مبعوث من عالم آخر إلى كوكب الأرض من أجل هدف كونى وهو تحقيق أحلام السيدة (ماجدة) .. فعندما تتعامل مع المختلين عقليًا توقع أى شىء .. أو يقول إن أحلامها أوامر غير قابلة للنقاش أو أى شىء من هذا القبيل .. إلا أن الحقيقة كانت شيئًا آخر ..

لقد كان ـ ببساطة ـ مجنون مال .

قال بهدوء الأفاعى ونظرات الذئاب :

ـ زوجتى ثرية جداً .. ثراء فاحش .. أنا وبرغم من كونى مدير شركة إلا أن ثروتى لا تساوى بجوار ثروتها شيئًا .. أتعب وأشقى وأصرف عليها وهى تمتلك رصيدًا هائلاً فى البنك لا ينقص بل يزيد .. ففكرت كيف أسلبها هذه الأموال .. وبينما أفكر فى خطة وقعت الحادثة التى راح ضحيتها والديها لتزيد ثروتها وتزداد معها رغبتى فى امتلاك هذه الثروة .. قالت بعدها إنها رأت موتها فى حلم .. وأن هذا الأمر يدفعها للجنون .. ففكرت لو أنها أصبحت مجنونة سأصبح وصيًا على كل ممتلكاتها .. وبرغم من كون الحلم جاء بعد وفاتهما إلا أننى غرست فيها اعتقاد أنها حلمت به من قبل ذلك وأن أحلامها تتحقق .. وهكذا عملت على تأكيد هذا الاعتقاد عندها .. فعندما تحلم بقطة سوداء مذبوحة .. أبحث عن قطة سوداء وأذبحها ، وأضعها فى نفس المكان الذى حلمت به .. وعندما تحلم بأن صورة العائلة انكسرت فأكسرها .. إذا حلمت برجل أعرج .. أؤجر ممثلاً مغمورًا ليقوم بدور الرجل

الأعرج وينتظرها فى الصباح ليقابلها .. وهكذا كنت أحقق لها كل حلم تراه بشتى الوسائل ولاأبخل بمال فى تحقيق ذلك لأنى أعرف أن العائد فى النهاية سيكون ضخمًا .. ثم بدأت تحلم بأحلام شنيعة .. قتل .. حرائق .. حوادث .. ترددت ، ولكنى كنت عازمًا على إكمال الخطة حتى نهايتها .. لذا عندما حلمت بموت عمها .. نفذت .. وكان يزيدنى بهجة أنها تزداد جنونًا .. ولم أعد أتردد بعدها فى تحقيق أى حلم أيا كان .. وفى النهاية لجأت إلى الدكتور (ياسين العوضى) كخطوة أخيرة ليثبت أنها مجنونة لأحصل على الثروة .. ولكنها حلمت بموت الدكتور نفسه .. وبدون تردد ذهبت لأقتل الدكتور برغم أننى كنت أعتمد على شهادته ، لكنى فكرت فى أن حلم موت الدكتور إذا تحقق ربما يكون الضربة القاضية لها ولن أحتاج إلى دكتور ليثبت جنونها فسيكون هذا واضحًا للعيان .

استأذنت الضابط لأسأله :

ـ أيعنى هذا أنك وراء حادث الأتوبيس ومقتل مهندس البترول ومقتل الصحفى ؟

لم يرد وكأنه غاب فى دنيا أخرى .. إنه مختل عقليًا فعلا .. لقد دفعته شراهته للمال إلى الاستيلاء على أموال زوجته وبطريقة جهنمية ، وهى أن يدفعها للجنون فسقط هو فى الشرك الذى نصبه لها .. وكان مصيره الإيداع فى مستشفى للأمراض العقلية .

تُرى هل سينتهى تحقيق الأحلام بإيداع (وليد) فى المستشفى؟

★ ★ ★

16 ـ الحلم القاتل ..

اليوم: الأحد ٢٠ يونيو الساعة الرابعة مساءً

المكان: عيادتى.

اتصلت بالسيدة (ماجدة) لأطمئن عليها :

ـ كيف حالك ؟

ـ بخير .. أحاول أن أنسى .

ـ ممتاز .. إن أفضل شىء تفعلينه هو النسيان .. وإن شعرت بأى شىء ينغص عليك حياتك لا تترددى فى الحضور إلى عيادتى أو الاتصال بى .

ـ سأفعل يا دكتور .. فأنت أكثر شخص أثق فيه الآن .. ولكن كلما تخيلت أننى كنت السبب فى كل هذه الحوادث أكاد أجن .. لو لم أكن قد حلمت بها لما حدث أى منها .. لقد قلت لك ذلك من قبل ولكنى لم أتصور ـ عندما قلتها ـ أنى سأكون بالفعل مسئولة عنها بهذه الصورة .. لا أستطيع تحمل هذه الفكرة .. إن هذا معناه .. أننى لو لم أحك لزوجى ما حلمت به لما كـ ...

قاطعتها قائلاً :

ـ عزيزتى .. نحن نحمد الله أنك خرجت من جنون (أحلامى تتحقق) .. أجدك الآن تدخلين إلى جنون (أنا السبب) .. لا .. أنت لست السبب .. ضعى هذا فى عقلك .. إن جشعه للمال ، وعقليته

المريضة هما السبب .. أنت لم تطلبى منه أن ينفذ أحلامك .. وحاولى أن تنسى كل ما مر بك .. وابدئى حياة جديدة لا ترتدين فيها الأسود ولا تشاهدين فيها أفلام الرعب .

ـ حسنًا يا دكتور .. سأحاول أن أنسى .

ـ وماذا عن الأسود وأفلام الرعب ؟

ـ سأتركهم .

ـ حسنًا وسأتركك أنا الآن لأنى مدعو إلى فرح .. ألا تحتاجين شيئًا ؟

ـ صديقك (فكرى) ؟

ـ نعم .. كيف عرف .. آه .. الدعوة .. لقد رأيتها واعتقدت أنها دعوة فرحى .

ـ أتمنى أن تدعونى لفرحك يا دكتور .

ـ بالتأكيد سأفعل إن شاء الله .

ـ أتعلم يا دكتور أنى قد حلمت بصديقك ؟

رغم أنها قالت جملتها وأعقبتها بضحكة إلا أننى توترت بمجرد سماعها وقلت بقلق وأنا أعتصر السماعة :

ـ كيف حلمت به وأنت لم تريه ؟

ـ لقد تخيلته .. ولكن لماذا أشعر أنك تسألنى متوترًا ؟

ـ هل قصصت هذا الحلم على زوجك ؟

ـ نعم .. ولكن لم القلق ؟ لقد قبض على زوجى .. اطمئن .. لن يتحقق الحلم .

ـ هل كان حلمًا سيئًا .

ـ كالعادة ولكن ..

ـ متى حلمت به ؟ ومتى قصصته على زوجك بالضبط ؟ لقد رأيت الدعوة يوم معرفتك بالحقيقة واتفقنا يومها على الحلم المزيف .. حلم الفيلا .. فمتى فعلت ذلك ؟

ـ لقد اتفقنا على حلم الفيلا ولكنى حلمت بصديقك بالفعل ولقد حكيت له الحلمين سويًا .. الحقيقى والمزيف .

ـ لماذا فعلت .. ألم يدر بخلدك أنه قد يحقق حلم صديقى ؟

ـ كيف ذلك وهو لا يعرف شكله ؟!

ـ ألم تخبريه بمكان الفرح ؟

ـ أخبرته ولكن ...

كدت أكسر السماعة غضبًا وأنا أقول لها :

ـ ما الذى رأيته بالضبط ؟

ـ لم القلق يا دكتور ؟! لقد قبض على زوجى فكيف ينفذ الحلم وهو فى المستشفى .

ـ ألا تعلمين أنه أحيانًا يستعين بآخرين مثلما حدث فى مقتل الصحفى ؟ لقد عرفنا أنه كلف شخصًا بدس السم له .

ـ آسفة .. لم أقصد هذا .

ـ حسنًا .. أخبرينى بسرعة حتى يمكننا إنقاذه قبل فوات الأوان .

ـ لقد رأيت الطباخ يضع طماطم وبصل وخضراوات على المنضدة ثم أمسك السكين وقطع الطماطم .. ثم البصل .. ثم ..

ـ يا إلهى .

وتركت السماعة تسقط منى والتقطت مفاتيح الشقة والسيارة وخرجت على الفور .

لم أسمع السيدة (ماجدة) وهى تصرخ عبر الهاتف ..

ـ دكتور .. اسمعنى .. أرجوك .. هناك حلم آخر .. حلم شنيع ولقد حكيته لزوجى بالفعل .. دكتور .. دكتور .

ولم تتلق رد لأنى فى هذه اللحظة كنت أركب سيارتى متجهًا لإنقاذ صديقى .

من حلم قاتل .

★ ★ ★

إن القاتل لا يعرف شكل العريس ولكنه يعرف اسمه ويعرف مكان الفرح ومن السهل جداً معرفة العريس فى يوم فرحه .. لذا أعتقد أن القاتل سيذهب إلى بلدتنا ليلة الحنة ويقتله .. أو أن يذهب إلى النادى ليلة الزفاف ويقتله .. أى أنه سيقتله الليلة ..

أو ليلة الغد ..

الطريق طويل .. وسيارتى لم تجد وقتًا أفضل من هذا لتتعطل فيه .

أشرت إلى سيارة أجرة .. وركبت وتمنيت أن أصل هناك قبل فوات الأوان .

★ ★ ★

القاتل كان يخبئ سكينه فى ملابسه وهو يبحث عن العريس .. حتى وجده ..

فاتجه إليه ..

فى هذه اللحظة وصلت ، ولمحت صديقى (فكرى) يجلس مبتسمًا وهو يرحب بالضيوف الذين جاءوا ليدفعوا (النقطة) .. فتنفست الصعداء .. ولم يمت صديقى .

ولكنى لمحت القاتل .. لقد تعرفته على الفور .. من النظرة القاسية فى عينيه .

من الانبعاج البادى من ملابسه والذى سببه السكين التى يخبئها فيها .

اتجهت إلى صديقى لأحذره وأمنع عنه ذلك الشر .. هنا رأيت السكين يخرج ويلمع نصله أمام عينى ويتجه إلى صدر صديقى ، فوقفت حائلاً بين القاتل وصديقى فجاءت الضربة فى جسدى وشعرت بالسكين يدخل فى صدرى والدماء تنساب منه ..

واستيقظت على الفور .. يا إلهى .. أصبحت أحلم مثل السيدة (ماجدة) بكوابيس شنيعة .. ونظرت حولى .. مازلت أجلس فى سيارة الأجرة ولم نصل بعد .. أتمنى ألا يتحقق حلم السيدة (ماجدة) .. وأتمنى ألا يتحقق حلمى أيضًا .

★ ★ ★

اليوم : الأحد ٢٠ يونيو الساعة السابعة والنصف مساءً

المكان : بلدتى .

أخيرًا بلدتى .. المكان الذى تربيت وعشت أجمل سنوات حياتى فيه .. المكان الذى كلما هبطت بقدمى فيه أشعر بسعادة تغمرنى والحنين يجتاحنى لأيام ولت ..

ولكن فى هذه المرة أهبط وأنا كلى قلق وخوف ورهبة .. وأنتم تعرفون السبب .

وبدلا من الاتجاه إلى دارنا كما يحدث فى كل مرة .. اتجهت إلى منزل صديقى .

وهناك .. رأيت مظاهر الفرح والزينة تملأ المكان فاطمأن قلبى ولكن .. لم أسمع أغنية أو زغرودة تنطلق فى المكان .. كان صامتًا .. وهناك شىء آخر .. كان خاليًا إلى حد ما .. لو قارناه بأى فرح زرته فى بلدتنا .. كان هناك رجال ولكنهم لم يكونوا شبابًا .. هذا الأمر أقلقنى .. فاتجهت إلى رجل أعرفه جيدًا وسألته فأجاب :

ـ لن تصدق ما حدث .. لقد طعن رجل مجنون العريس ونقلوه على الفور إلى المستشفى .

هذا معناه أنى وصلت بعد فوات الأوان .. لقد نفذ القاتل جريمته .. لقد طعن صديقى .

وفجأة سمعت صراخ السيدات يدوى فى المكان .. أشعر أن المكان ارتج حولى .

ـ « العريس مات » .

ما هذا الذى سمعته ؟ بالتأكيد يكذبون .. العريس لم يمت .. لاتقولوا غير هذا .

هنا سمعت الخبر مرة أخرى .. والصراخ يدوى فى أذنى يحرقها .. قدماى لا تستطيعان حملى .. الدم يهرب من عروقى .. أشعر ببرودة .. بحثت عن مقعد لأتهاوى عليه فلم أجد فسقطت أرضًا ..

صديقى مات .

★ ★ ★

17 ـ الكابوس الأخير ..

اليوم : الاثنين ٢١ يونيو الساعة الثالثة مساءً

المكان : منزل عائلتى .

صلينا عليه الجنازة فى ظهر اليوم .. وقضيت بقية الوقت فى السرادق المقام له .

اليوم دفن صديقى بدلاً من أن يتزوج .. من كان يتوقع ذلك .

هل كان مقدرًا له أن يقابلنى فيعطينى الدعوة ؟ هل كان مقدرًا للسيدة (ماجدة) أن ترى الدعوة عندى ؟ هل كان مقدرًا لها أن تتخيله وتحلم به ؟ هل كان مقدرًا أن تحكى لزوجها الحلم ، فيؤجر قاتلاً لتنفيذه ؟ هل كان مقدرًا أن أصل بعد فوات الأوان .. بعد أن يطعن صديقى بسكين ويهرب القاتل ؟ هل كان مقدرًا أن يموت صديقى ؟

الإجابة عن جميع هذه الأسئلة : نعم .

عدت إلى منزل عائلتى لأستريح قليلاً .. فأخبرنى ابن أختى أن هنالك سيدة اتصلت بى أكثر من مرة ، وأنه بحث عنى كثيرًا ليبلغنى ولكنه لم يجدنى .

لا أعرف كيف لم يجدنى ؟ يبدو أنه لم يبحث عنى فى السرادق .. سألته :

ـ هل أخبرتك باسمها ؟

ـ نعم .. تقول إنها السيد (ماجدة) .. صاحبة الأحلام ، وتقول إن الأمر ضرورى وتركت رقم تليفونها حتى تتصل بها .

أى أمر ضرورى ستحتاجنى فيه هذه السيدة .. سيدة الكوابيس .. (الأفعى السوداء) وليست (الفراشة السوداء) ؟

أعتقد أنى لن أتصل بها .. لا أريد أن أسمع صوتها .. إنها السبب الرئيسى فى مقتل صديقى ، وأنا أشترك معها فى هذه الجريمة .. لاأريد أن أسمع صوتها أبدًا .

قال ابن أختى بإلحاح ، وهو يجذب جلبابى :

ـ اتصل بها يا خالى .. لقد اتصلت عشر مرات على الأقل .

ـ لا .. لن أتصل بها .

ـ ولكن ..

هنا دق جرس الهاتف فصاح قائلاً :

ـ لابد أنها هى يا خالى .. هل أرد عليها ؟

ـ لا .

ولكنه لم يستمع لى ورفع السماعة و ..

ـ آلو .. نعم .. إنه هنا .. ولكنه لا يريد أن يكلمك .

التقطت السماعة بسرعة قبل أن يتفوه بكلمة أخرى وقلت :

ـ آلو .. إنه ابن أختى .. ويحب المزاح كثيرًا .

ـ هل أبلغك أننى اتصلت بك ؟

ـ نعم .. لقد أبلغنى الآن وكنت سأطلبك فى هذه اللحظة .

ـ أين كنت كل هذه المدة ؟

ـ كان لدى عمل كثير .

ـ عمل ؟

ـ نعم .. عمل .

ـ أنت تكذب علىّ يا دكتور .

ـ لا أكذب عليك .. لدى عيادة هنا .. ومرضى كثـ

ـ أخبرنى الحقيقة يا دكتور .. أين كنت ؟

ـ هل تريدين أن تعرفى الحقيقة ؟

ـ نعم .

ـ حسنًا .. كنت فى سرادق العزاء .

ـ أيعنى هذا أنه ....

ـ نعم .. لقد توفى .

سمعت صوت بكاء على الطرف الآخر ثم سمعتها تقول :

ـ أنا السبب .. أنا السبب .

تمالكت نفسى ، وقلت لها وأنا أضغط على أسنانى :

ـ أنت لست السبب إطلاقًا .

ـ أحقًا يا دكتور ؟

ـ نعم .. وأخبرينى الآن .. ما هو الأمر الضرورى الذى من أجله اتصلت بى عشر مرات ؟

ـ إنه حلم آخر .. حلم شنيع .. حلم رأيته قبل جلستنا الأخيرة وكنت سأحكيه لك خلال الجلسة ، ولكنك فاجأتنى بحقيقة زوجى يومها فنسيته تمامًا ، ولكنك عندما أخبرتنى بالأمس أن الحلم قد يتحقق رغم دخول زوجى السجن فتذكرته على الفور .

ـ ومتى قصصته على زوجك ؟

ـ قبل جلستنا الأخيرة بيوم .. ربما اثنين .

ـ ولماذا لم تخبرينى بالأمس ؟

ـ أنت لم ترد علىّ .. لقد تركت السماعة ، ونزلت مسرعًا دون أن تسمعنى .. لقد تعبت كثيرًا حتى استطعت الحصول على رقم هذا الهاتف .

ـ حسنًا .. أخبرينى على الفور .. ما هو الحلم الآخر ؟

ـ حلمت أن الطباخ فتح أنبوبة الموقد ، ولم يشعل النار .. فخرج الغاز ليخنق ..

ثم توقفت فلم أعد أسمع سوى صوت أنفاسها المتلاحقة .. لا .. ليس هذا وقت الحلقات المتقطعة .. سألتها فى توتر :

ـ من ؟ عمتك ؟

ـ لا .

ـ إحدى جاراتك ؟

ـ لا .

ـ من إذن ؟

ـ يا إلهى .. أنا آسفة جدًا يا دكتور .

ـ لم الأسف .. هل حلمت بى ؟

ـ لا .

ـ أحد مرضاى ؟

ـ لا .. أنا آسفة جدًا يا دكتور .

ـ من ؟؟ أخبرينى بالله عليك .

ـ آسفة جدًا .. لم أكن أقصد هذا .. لا أصدق أن هذا سيحدث .. آسفة .

ـ من ؟ أجيبينى .. من ؟

ـ إنها خطيبتك .. لقد حفظت صورتها فحلمت بها .. كان الـ

قلبى يكاد يتوقف .. وضعت السماعة بقوة .. كدت أحطمها من الغضب ثم اتصلت بمنزل خطيبتى لأطمئن عليها .. ولكن لم يرد أحد .. ولم أنتظر .. لقد حدث شىء .. وضعت السماعة وانطلقت على الفور إلى منزل خطيبتى .

دعوات الله ألا يصيبها مكروه .. قلبى لن يتحمل الصدمة هذه المرة .. لو حدث شيئًا لهذا الملاك لن أسامح السيدة (ماجدة) أبدًا ..

★ ★ ★

اليوم: الاثنين ٢١ يونيو الساعة الخامسة مساءً

المكان: منزل خطيبتى.

الحمد لله .. لم تخذلنى سيارتى هذه المرة ..

وصلت فى وقت قياسى .. المهم أن أكون قد وصلت هذه المرة قبل فوات الأوان .

ها هو المنزل الذى تسكن فيه مع أسرتها .. صعدت السلالم بأقصى سرعة .

ما هذه الرائحة ؟ أشم رائحة الغاز تملأ المكان .. لابد أنها تنبعث من الداخل .

طرقت الباب ودققت الجرس .. لا أحد يرد ، هل يعنى هذا أن الحلم قد تحقق أيضًا ؟ هل صعدت روحها الطاهرة إلى بارئها ؟

صديقى بالأمس .. وحبيبتى اليوم .. لاااا

صرخت بكل قوتى :

ـ لا .. لا يمكن أن تكون هذه هى النهاية .. لا .

وطرقت الباب بكل قوة أمتلكها .

هنا سمعت صوت صراخ .. صراخها على الأرجح .. هذا يعنى أنها مازالت على قيد الحياة .. أحمدك يا رب .. صراخها يعنى أن القاتل لا يزال بالداخل .

حاولت فتح الباب ولكن هيهات .. إنه صلب كالصخر .. ودققت أجراس الجيران فخرجوا على الفور مذعورين .

الصراخ ورائحة الغاز وذعرى فسروا كل شىء .. فتعاونوا معى على الفور فى تحطيم هذا الباب المنيع .

أشعر أن جسدى ينهار .. حبيبتى تموت أمام عينى ، وأنا أقف عاجزًا عن مساعدتها .. يحول بينى وبينها باب منيع .. سأفقدها مثلما فقدت صديقى .

لا .. لا يمكن أن يحدث هذا .. أنا فى كابوس .. كابوس مريع .. أشعر بدموعى تنساب .. أتحسس دموعى .. أنا لا أحلم .. حبيبتى تموت الآن ويموت معها قلبى .

تركت الباقين يحاولون فتح الباب وتراجعت للخلف خطوة .. لن أستسلم .. خطوة أخيرة للوراء .. لن يتحقق ..

أبدًا .

واستجمعت كل قوتى وأنا أتجه نحو الباب كصاروخ صائحًا بقوة :

أبدًاااااا

واستسلم الباب وانفتح أخيرًا لأرى القاتل أمام عينى يحاول خنق الملاك البرىء .. يبدو أنها قد رأته وهو يحاول الفرار بعد أن فتح الغاز .. فقرر أن يخنقها .. ذلك المجرم الأثيم .. عدو الإنسانية .

رآنا فتركها تسقط على الأرض وحاول الهرب ..

لم أجد سوى الزهرية لأقذفه بها .. وأصبت الهدف فالتفت ليرى من قذفه .. هنا انقضضت عليه بكل براكين الغضب المشتعلة بداخلى ، ووجهت له لكمة ساحقة .. أسقطته أرضًا على الفور .

ـ هذه من أجل الملاك البرىء الذى حاولت قتله .

وسددت إليه لكمة أخرى ساحقة .

ـ وهذه من أجل رقتها .

ـ وهذه من أجل براءتها .

وهكذا توالت لكماتى عليه .. الواحدة تلو الأخرى .. ولم أشعر بالتعب ثم أنهيتها بضربة رأس قوية قائلاً :

ـ وهذه لأن هذا الملاك يخصنى .

هنا انهارت مقاومته تمامًا وسقط على الأرض .. لم يمت طبعًا فلست قاتلاً .

انهمك الجيران فى إسعاف خطيبتى وتهوية المكان .. انحنيت لألقى نظرة على الملاك فطمأننى الجيران فحمدت الله أننى جئت فى الوقت المناسب .

ثم اتجهت إلى المجرم وانحنيت لأنزع اللثام عن وجهه لأتعرفه ..

ورفعت اللثام .. ورأيت وجهه .. لقد كان (زكى) .

القاتل المأجور .

★ ★ ★

18 ـ الكابوس الأخير ..

اليوم : الاثنين ٢١ يونيو الساعة الخامسة والنصف مساءً

المكان : منزل خطيبتى .

استعاد (زكى) وعيه فنظرت له بغضب ، وقلت :

ـ أنت .

قال وهو يتحسس فكه ، وجبهته :

ـ آسف .. لم أكن أعلم أن لك صلة بها .

ـ وبدون أن تكون لى صلة بها .. ألن تتوب ؟

ـ نعم .. بالفعل .. إن هذه كانت المرة الأخيرة .. اتركنى وسأتوب .

ـ لا .. لن ألدغ من نفس الجحر مرتين .. لن أتركك ثانية .

ـ حسنًا .. أنا مستعد لكل الاختبارات النفسية التى تريدها .

ـ ولا هذه أيضًا .. لقد تجرأت ومسست رمز الجمال نفسه .. لن تغفر لك الإنسانية هذا الجرم .. كيف فكرت فى قتلها ؟ هل كنت تريد أن يبقى الجمال بدون رمز ؟ كيف أغفر لك هذا ؟! لقد ارتكبت أكبر جرم فى حياتك .. أن تمس خطيبتى .

ـ خطيبتك .. صدقنى .. لم أكن أعلم ذلك .. وأقسم لك على هذا .

ـ ليس هذا مبررًا .. سأسلمك للشرطة لتلقى مصيرك .

ـ سأجيب على كل الاختبارات النفسية التى تريدها .. حتى لو استمر هذا أيامًا .. أنا موافق .. ما رأيك ؟

إنه يغرينى بعرضه هذا .. لقد عرف نقطة ضعفى ويحاول استغلالها .. إنها فرصة عظيمة بالفعل لو أن الـ ... ولكننى قلت :

ـ ولو .. لقد ارتكبت جريمة فى حق البشرية .. لذا لن أتركك حتى لو قلت أنك مستعد لتجربة مواد كيميائية عليك .. لن أتركك تفلت من العقاب .. هذا الأمر محسوم .. اتفقنا ؟

فصمت بعد أن وجد أنه لا مفر من العقاب ولكنه اعتقد واهمًا أن هناك بارقة أمل عندما سألته :

ـ لماذا ترتكب مثل هذه الجرائم ؟

ـ من أجل المال .

ـ يمكنك أن تعمل عملاً شريف وتكسب منه مالاً أيضًا .

ـ نعم ولكنى عانيت كثيرًا وأريد أن أكسب مالاً وفيرًا لأعيش بعدها حياة الرفاهية .

ـ غبى .. طالما أنك تفكر بهذه الطريقة .. افترض أن هناك بيتًا مدفوع إيجاره لمدة شهر وسترحل بعده وهناك بيت آخر ملكك ستعيش فيه بقية حياتك .. أى البيتين ستجهزه بوسائل المعيشة وتنسقه وتزوده بجميع الكماليات ؟

ـ طبعًا البيت الذى سأعيش فيه بقية حياتى .

ـ حسنًا .. لماذا إذن تفكر فى حياة الرفاهية التى ستعيشها من المال الحرام فى هذه الدنيا الزائلة .. ولم تفكر فى الحياة التى ستحياها فى الآخرة رغم أنها هى الحياة التى ستعيش فيها أبدًا ؟ تخيل أن البيت الأول هو الدنيا والبيت الثانى هو الآخرة .. لماذا إذن لا تجهز شيئًا للبيت الثانى ؟ لذا سأسلمك للشرطة .. هل تعرف لماذا ؟

ـ لماذا ؟

ـ لأنك غبى .

ثم تنبهت إلى شىء ما فسألته بطريقة ذكية :

ـ لماذا قتلت العريس ؟

فأجاب مندهشًا :

ـ كيف عرفت ؟

ـ إذن .. أنت الذى قتلته .

هنا انتبه للفخ الذى وقع فيه .. ولكنه لم ينتبه إلى اللكمة الساحقة التى توجهت إلى وجهه بأقصى سرعة ، ولكنى أعتقد أنه سمعنى جيدًا وأنا أقول :

ـ وهذه من أجل صديقى .. الذى قتلته .

أعتقد أنه فقد الوعى مرة أخرى .

★ ★ ★

اليوم : الاثنين ٢١ يونيو الساعة الثامنة مساءً

المكان : منزل خطيبتى .

طمأنتنى حماتى قائلة :

ـ اطمئن يا بنى .. هى بخير الآن .

ـ أريد أن أطمئن بنفسى .

فدخلت غرفة أميرتى وسمعتها تقول :

ـ خطيبك يريد أن يراك .

سمعت (نادين) تقول بصوتها العذب :

ـ دعيه يدخل .

فدخلت على الفور .. لأرى وجهها الملائكى ..

إنها خطيبتى (نادين) ..

جميلة حتى وهى مستكينة على السرير فى قمة الإرهاق والوهن ..

آه .. أنا فعلاً أحبها بشدة .. أحبها بجنون .

خطيبتى (نادين) .

إنها همسات ..

إنها همسات العشق والهوى والجنون ..

إنها همسات الثورة والسكون ..

إنها همسات قلبى المفتون ..

إنها بالنسبة لى ..

كل الكون .

قلت لخطيبتى وأنا أسمع دقات قلبى تخفق بعنف :

ـ كيف حالك ؟ أتشعرين بتحسن الآن ؟

ـ نعم .

ـ أين كانت أسرتك وقت الحادث ؟

فأجابتنى والدتها :

ـ للأسف .. خرجنا وتركناها وحدها بالمنزل .

يبدو أن ذلك المجرم كان يراقب الشقة منذ زمن وانتظر هذه الفرصة لينفذ جريمته .

سألتنى أميرتى وابتسامة رائعة تعلو شفتيها :

ـ أجبنى أنت .. أين ذهبت ؟

ـ كان لابد أن أسلمه للعدالة بنفسى ، لو لم أتركه فى المرة السابقة لما حدث ذلك .

ثم فكرت قليلاً فعدت أقول :

ـ وربما كان (وليد) بعث بشخص آخر غيره .. إن قانون الاحتمالات يرهقنى .

فسألتنى بدهشة :

ـ أيعنى هذا أنك تعرفه ؟

ـ نعم .. للأسف .

قالت بابتسامة واهنة .. ورائعة فى نفس الوقت :

ـ كنت أخشى عليك دائمًا أن تموت على يد أحد مرضاك .. أما الآن فأنا أعتقد أننى التى سأموت على يد أحد مرضاك .

ـ لا .. لا تقولى ذلك .. وعلى فكرة .. لم يكن أحد مرضاى .. إنه قاتل وفقط .

نظرت إلى ابتسامتها التى تستحق أن تُرسم .. كاد (زكى) أن يحرمنى منها إلى الأبد .. أما السيدة (ماجدة) فهى السبب فيما حدث ولولاها أيضًا لما استطعت إنقاذ أميرتى .

أحضرت الهاتف الذى كان موضوعًا على الكومود بجوارى

واتصلت بها .. طبعًا لم تعرف خطيبتى بمن أتصل .. حتى المحادثة لم تسمع منها سوى ما كنت أقوله :

ـ كيف حالك ؟ اطمئنى ، لقد وصلت فى الوقت المناسب .. هى الآن بخير .. نعم .. لقد خمنت أنك ستكونى قلقة عليها لذا اتصلت بك .. لا .. لست السبب ، إنه زوجك كما قلنا ، ولو أنك سبب فأنت سبب لإنقاذ حياة خطيبتى .. نعم .. لقد زال الخطر .. لا ليس زوجك طبعًا .. إن زوجك لا يزال فى المستشفى .. كان قاتلاً مأجورًا .. حصل على أجره مقدمًا .. نعم .. حسنًا .. ماذا ؟ عمتك ؟ وتعيش أيضًا معك ؟ ماذا الأسود ؟ أحقًا ؟ ما هو لونك المفضل الآن ؟ ها ها .. لم تبتعدى كثيرًا .. ماذا ؟ أتقولين أنك حلمت ؟ أمازالت تعتقدين أن الـ ... آه .. اعتقدت للحظات أنك مازلت .. حسنًا .. احكه لى طالما أنك تقولين إنه حلم جميل .. ماذا بالضبط ؟ حقًا .. ولكن كما قلنا إن الأحلام ... إجابة رائعة .. عشرة على عشرة .. ماذا تفعلين الآن ؟ تشاهدين ماذا ؟ رائع ، أحسنت .. أتحتاجين شيئًا منى ؟ لا شكر على واجب .. الله يسلمك .. سلام .

قالت خطيبتى وفى عينيها بريق الغيرة :

ـ من هذه الجميلة ؟

قلت لها ساخرًا :

ـ لم أكن أعلم أن هاتفكم ينقل الصورة .

قطبت حاجبيها فقلت لها وأنا أربت على يديها :

ـ إنها إحدى مرضاى .. ولولاها لما استطعت إنقاذك لذا أردت أن أطمئنها .

ثم تأملت حلم السيدة (ماجدة) الأخير الذى أخبرتنى به فى هذه المكالمة .. لقد حلمت بأن الطباخ وضع السم فى الطعام ليقتل به شخصًا ما وأثناء إعداده هذا الطعام تذوقه فمات منه .

لو أننا نظرنا بمنظار علوى سنجد أن أحلمها الأخيرة هذا قد تحقق بالفعل ، وهى لا تعلم ذلك .. فلقد أراد (الطباخ) أن يفقدها عقلها ويدفعها للجنون فوقع هو فى نفس الشرك .. الذى صنعه لها .. لقد أكل من نفس الطبق الذى وضع به السم ، لقد أصابه الجنون .. ألايعنى هذا أن حلمها قد تحقق ؟

ابتسمت فلمحت خطيبتى الابتسامة فسألت بمرح :

ـ ما سر هذه الابتسامة ؟

لم أجب سؤالها .. فقط سألتها ضاحكًا :

ـ أخبرينى أنت .. بم حلمت بالأمس ؟

★ ★ ★

فى العدد القادم .. سنرى حالة خاصة أخرى .. خاصة جداً .. سيدة تشعر بأن الجميع يخططون لقتلها .. تتوقع أسوأ الأشياء من أقرب الناس إليها .. والطبيب يحاول إقناعها أنها تتوهَّم ذلك .. ليست المشكلة أنها لم تقتنع .. المشكلة كانت أكبر وأخطر .. مشكلة لم تتوقعها المريضة ولم تخطر على عقل الطبيب .. أريد أن أعطى نبذة عن الحالة وفى نفس الوقت لا أريد أن أحرق الرواية .. أتمنى أن أكون قد وُفقت فى ذلك .

كلمة أخيرة : لو قلت أنك تعرفنى فأنت كاذب .. لو قلت أنك تعرف نفسك فأنت مخدوع .. ولكن هذه حالة أخرى ..

حالة خاصة ..

جدًا جدًا ..

جدًا .

تمت بحمد الله

حالات خاصة

مذكرات طبيب نفسى ،
يصارع للحفاظ على حياته ،
والحفاظ على سلامة عقله .

محمد رضا عبد الله

حالة الحاسّة السّادسة

- أرى أناسًا موتى .

من شاهد فيلم (الحاسة السادسة) لبروس ويليز لا يمكنه أن ينسى هذه الجملة .

- أرى أناسًا يموتون .

من قرأ هذه الرواية لا يمكنه أن ينسى هذه الجملة .

عفوا .. سنكتفى بهذا القدر هنا .

العدد القادم

حالة بارانويا

الثمن فى مصر 400
وما يعادله بالدولار الامريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والاسكندرية

مطابع